حكايات الجوارى

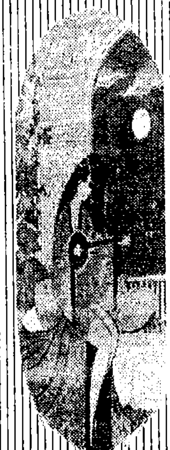
فى قصور الخلافة

سعيد أبو العينين

الغلاف بريشة الفنان :

مصطفى حسين

مقدمة



■■ على امتداد العصور الإسلامية، لعبت الجوارى أدوارا هامة ومثيرة فى التاريخ العربى، وفى صياغة الكثير من وقائعه.

وعندما يذكر اسم الجوارى، فإن أول ما يتبادر إلى أذهان الكثيرين هو أن اللعبة كلها كانت هى الجنس.

وليس ذلك صحيحا.

فحقائق التاريخ تقول : إن الجوارى كانت لهن أيضا، أدوار هائلة فى الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية، ومختلف ألوان الفنون والآداب.

■■ وقد لا يعرف الكثيرون، أن كثيرا من أمراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين الذين حكموا الدولة الإسلامية، فى فترات تعد من أزهى عصورها، كانوا من أبناء الجوارى!

نعم، من أبناء الجوارى، وقاموا بأدوار عظيمة فى تاريخ الدولة الإسلامية، ورفعة شأنها، والذود عن حماها، وتركوا بصماتهم، بأسمائهم وأعمالهم، على كثير من وقائع ذلك التاريخ المجيد.

■■ وليس أمراء المؤمنين فقط، من أبناء الجوارى، هم الذين صاغوا وقائع ذلك التاريخ المجيد.

فهناك الخلفاء والسلاطين الذين ارتبطوا بالجوارى، بصورة أو بأخرى.

■■ وحتى الجوارى أنفسهن، فالبعض منهن كتبن صفحات مشرقة ومضيئة فى تاريخنا، ومازلنا نتغنى بها إلى اليوم! فجارية السلطان نجم الدين أيوب هى التى تصدت للحملة الصليبية بعد موت السلطان، وتولت قيادة الجيش، وقاتلت الغزاة، وأسرت الملك لويس فى المنصورة، وحددت الفدية المطلوبة لإطلاق سراحه! وصارت حكايتها من الملاحم الشعبية فى تراثنا.

نعم، كانت جارية، تلك المرأة التى تحررت بالإسلام، وصنعت ذلك التاريخ، وردد الخطباء اسمها على المنابر، ودعوا لها، ولقبوها بعصمة الدنيا والدين!

■■ وقد يندهش البعض ويتعجب عندما يقرأ كلمات المؤرخ ابن حزم، وغيره من المؤرخين، التى تقول:

■ إنه لم يل الخلافة فى الصدر الأول من كانت أمه من الإماء «أى الجوارى» سوى يزيد وإبراهيم بن الوليد.

■ ولم يل الخلافة فى الدولة العباسية من كانت أمه من الحرائر سوى العباس السفاح والمهدى والأمين.

■ ولم يل الخلافة فى دولة بنى أمية بالأندلس من كانت أمه حرة أصلا (!).

أى أنهم كانوا جميعا من أبناء الجوارى!

وعن طريق هؤلاء، عبرت الحضارة العربية من الأندلس إلى أوروبا، فى العصور الوسطى، حينث كانت أوروبا تتخبط فى الظلام.

■■ حفلت قصور الكثيرين من حكام الدولة الإسلامية على

امتداد العصور، بالجوارى، ومن كل لون، وصنف، وجنس.

■■ والحكايات التى تروى عن غراميات أمراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين مع الجوارى كثيرة جدا، وهى حكايات شائقة وجميلة.

■■ وبعض أمراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين تدله فى حب الجوارى كما العشاق الكبار، وكتب أرق الكلمات التى تعبر عن عشقه وغرامه.

■■ كان للجوارى سلطان ونفوذ على كثير من أمراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين، خاصة فى الدولة العباسية.

ورغم الكثير الذى يقال عن هارون الرشيد أمير المؤمنين، فهو يعد من المعتدلين بالنسبة لغيره الذين غالوا فى لعبتهم مع الجوارى.

■■■

■■ والكلام عن الجوارى هو كلام عن الرق والرقيق.

والرق كان فاشيا فى العالم القديم.

عرفه الفرس والرومان واليونانيون والهنود والصينيون والمصريون والعرب.

نعم، عرف العرب الرقيق والجوارى قبل الإسلام وكانت له أسباب كثيرة، أهمها الغزو.

■■ ولما ظهر الإسلام، أصبح الرق مقصورا على حالة واحدة فقط، وهى التى تكون فى أعقاب الحرب ووقوع أسرى الأعداء من الرجال والنساء.

وذلك فى زمن الفتوحات.

وجعل للفاتحين أن يمنوا على الأسرى بالعفو، ولهم أن يقبلوا

منهم «الفدية» ويخلو سبيلهم.

ولهم أن يضربوا الرق عليهم.

قال تعالى : ﴿فإذا لقيتم الذين كـفروا، فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتمـوهم، فشدوا الوثاق، فإمـا منا بعد، وإما فـداء، حتى تضع الحرب أوزارها﴾.

■■ هذا مع ترغيب الإسلام فى عتق الرقيق وإكـرامه ومعاملته بالحـسنى واحتـرام آدميـته فى آيات كـثيـرة جدا من كـتاب الله. وأحاديث كثيرة جدا من كلام رسول الله.

وعلى ذلك. فالجـارية فى الشرع الإسلامى، كـما قال الفقـهاء، هى كل امرأة أُخذَت أسيرة فى الحـرب، على شريطة أن تكون غير مسلمـة، لأنه لا يجوز لأى سبب من الأسـباب أن تسبى المسلمة وتسترق.

وكذلك التى تؤخذ شراء من أسواق الرقيق فى ذلك الوقت.

وقد أباح الإسلام للمالك أن يعاشر التى ملكها من هذا الطريق، معـاشرة الزوجات، ويكون ذلك سـبيـلا إلى عتقـها وحريتـها فى المستقبل.

■■ ومن مـبادئ الإسـلام أنه يدعو كـثـيرا إلى عـتق الرقبـة واطلاق حرية المملوك، ويجعل لذلك ثوابا كبيرا.

فعتق الرقاب يغفر كثيرا من الذنوب والآثام.

■■ قال تعالى فى الحث على عتق الرقبة : ﴿فـلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة﴾.

والمراد هنا هو : حث الإنسان على فعل ذلك العمل الجليل.

■■ وقال تعالى فى كـفارة القتل : ﴿ وما كـان لمؤمن أن يقتل

مؤمنا إلا خطأ، ومن قتل مـؤمنا خطأ فتحرير رقـبة مؤمنة. ودية مسلمة إلى أهله إلاّ أن يصدقوا﴾.(سورة النساء)

■■ وقـد كانـت اخر كلمـات الرسـول الكريم وهو في مـرض الموت، وصـيته المشهورة فى إكـرام الرقيق التى رفع فيـها يده وهو يقول : «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم».

ووصــيـته بالرقـيق إلى جـانب الصــلاة التى هى أول أركـان الإسلام يدل على أهمية الوصية وعظم الثواب عليها.

■■ وقـد أوجب الإســلام الاحســان إلى المـملوكـين، وجـعله كالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى.

■■ قال تعالى:﴿واعبدوا الله، ولا تشـركوا به شيئا، وبالوالدين إحسـانا، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجـار ذى القربى، والجـار الجنب، والصـاحب بالجنب، وابن السـبيل، ومـا ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ (سورة النساء)

■■ وفى صـحـيح البخـارى كتاب مـسـتـقل سماه «فـى العتق وفضله» ذكـر فيه كثـيرا من الأحاديث التي تحـبب فى عتق الرق. ومنها قوله عليه الصلاة والسلام:

«من كانت له جارية، فعالها فأحسن إليـها. ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران».

■■■

■■ نقول ذلك، ونذكره، ونسجله، ونحن نقدم لهذا الكتاب الذى يحكى عن الجوارى، وعن الدور الذى قامت به الجوارى فى الحياة الاجتمـاعية والسياسـية والثقافية، وعن أمـراء المؤمنين والخلفاء والسلاطين الذين ارتـبطوا بالجوارى، بصـورة أو بأخـرى. وكانت لهم غراميات تفوق غراميات كبار العشاق.

نعم، لقد انطوت صفحة الجوارى، ولكن يبقى التاريخ، وتبقى وقائعه، التى نعود إليها، ليس للتسلى، وإنما لكى نعى وتدبر ونتفهم. ما جرى فى ذلك الزمان البعيد، وما يجرى فى عالم اليوم. عالم الجوارى الجديد الذى تحكمه مؤسسات. ومنظمات، وعصابات. لا تقف عند بيع الجوارى فقط، وإنما تعرضهن للإيجار، باليوم والساعة!

إنه عالم الجوارى الجديد.

الذى لا يعرف الأمراء، ولا المؤمنين!

سعيد أبو العينين

حكايات الجوارى

فى قصور الخلافة

غراميات أمير المؤمنين

الذى كان يبكى عند سماعه الموت والحساب!



١

■ ١٠ جوارى هدية لأمير المؤمنين.. لكى ينسى حب الجارية دنانير!

■ ألف دينار صدقة كل يوم.. من أجل الجارية التى لا تصوم رمضان

■ الجبرتى: زوجة أبى كانت تشترى الجوارى وتقدمها لزوجها.. طلبا للثواب!

كان الخليفة المنصور أكثر الخلفاء العباسيين تشددا فى الحد من سلطان الجوارى ، واضعاف شأنهن والعمل على منع تسربهن إلى القصر ، إلا فى أضيق الحدود. وبعد فحص دقيق.

وعندما وقفت الجارية «الخيزران» أمامه أخذ يتفحصها طويلا.

كانت الخيزران جارية لرجل من ثقيف، فقدم بها إلى مكة وباعها فى سوق الرقيق.

وجاءوا بها بعد ذلك إلى الخليفة المنصور فى بغداد، الذى أخذ يتفحصها ، ثم سألها:

ـ من أين أنت؟

قالت : المولد مكة.. والمنشأ جرش.

سألها : ألك أحد؟

قالت : مالى أحد إلاّ الله.

واستحسنها الخليفة المنصور، ورأى أن يقدمها لابنه المهدى. فنادى على غلام وقال له : اذهب بها إلى المهدى وقل له «إنها تصلح للولد».

أى أنها تصلح لأن يأتى منها بولد ، وأن تكون بالنسبة له «أم ولد»!

ولقب «أم ولد» كان يطلق على الجـارية أو الأمة التى تنجب من سيدها ومولاها.. وهو يقابل لقب «أم البنين» بالنسبة للمرأة الحرة التى يتزوجها.

استحسن «المهدى» الجارية «الخيزران»..

و«بنى لها» كـما كانوا يقولون، أى زفت إليـه فولدت له اثنين.. صار أحدهما بعد ذلك أشهـر الخلفاء الذين عرفهم التاريخ العربى بحياتهم المـثيرة وهو : هارون الرشيد.. أميـر المؤمنين.. صاحب الغراميات الشهيرة والمثيرة مع الجوارى!

نعم، هارون الرشـيـد، أميـر المـؤمنين، الذى دارت من حـوله قصص الليالى المثيرة التى افتتن الناس بها ، وأخذ كتاب القصص والروايات فى العـالم يستلهـمونها فى تصـوير الحيـاة الشرقـية المترفة فى قصور بغداد أيام هارون الرشيد.

●●●

كان عـصر هارون الرشيد، أمـير المؤمنين، هو أزهى عـصور الدولة العباسية.

كانت بغـداد فى ذلك العصر. هى زهرة المشـرق وجنة الدنيا، فقد شيدت فيها القصور، وغرست فى أنحائها البساتين والحدائق، وامتلأت بالميادين الفسيحة، وازدحمت بالمساجد الفخمة المشيدة فى بناء ضخم وشكل هندسـى جميل. وقد زينت جـدرانها بأروع الزخارف وأبدع النقوش..

وقد خطت الدولة خطوات واسعة فى الناحيـة العلمية، فامتلأت بالمدارس ودور العلم، واتسـمت فى عرف المؤرخـين بأنها مطلع شمس العلوم والفنـون، ومشرق نور العـرفان، فكانت بحق دولة العلم والتـأليف والابتكار والتـدوين والنقل والترجـمة، وصـارت بغـداد زهرة مـدن الدنيـا وكعـبـة طلاب العلم، والمـركـز العلمى

والأدبى الأولى ، حتى لقد كان لزاما على كل من تفوق فى علم أو فن إذا رغب فى الشهرة وزيوع الصيت أن يرحل إلى بغداد، وأن يتقرب بعلمه وفنه إلى خلفائها وأمرائها، وكثرت فيها دور الكتب التى كانت أندية للعلماء والباحثين ، وانتشرت المؤلفات ونشطت صناعة الكتب والخط، وشيدت المراصد الفلكية والمصحات الفخمة. ونبغ عدد كبير فى علوم الطب وفن الصيدلة والرياضيات وغيرها.

لقد بلغت الدولة ذروة المجد والحضارة. وبلغت الحالة الاجتماعية أرقى ما يتصوره إنسان، وتقدمت أسباب الحياة ومعيشة الرفاهية ، وازدهرت الندوات، وانتشرت مجالس الأدب والثقافة.. وأخذت الدولة من مظاهر الأبهة والعظمة مالم تعرفه دولة من قبل، فكان موكب الخليفة أمير المؤمنين يخرج فى الحفلات الرسمية بأعظم مظاهر الملك والخلافة، فى كوكبة من الحراس ، يتقدم الموكب فرقة من المشاة تحمل الأعلام ، ثم فرقة الموسيقى تعزف الأنغام ، ثم يظهر خلفها جماعة الأمراء فوق جياد مطهمةمزدانة، وأخيرا يقبل الخليفة أمير المؤمنين على جواد أبيض، يتبعه رجال الدولة، ثم بقية الحراس فى نهاية الموكب.

●●●

نشأ هارون الرشيد فى قصر أبيه المهدى، وكان المهدى أول من عنى من خلفاء الدولة العباسية بابراز مظاهر الترف وألوان اللهو، وكان حريصا على أن ينشأ أبناؤه نشأة أقرب إلى الجد وأبعد ما تكون عن تلك الأجواء التى كان يخشى أن ينزلقوا فيها، لكن هذا الحرص لم يمنع أبناءه من الاتصال بتلك الاجواء الفنية إتصالا مباشرا، فقد اتصل هارون الرشيد بتلك الأجواء منذ كان أميرا.

وقد تولى هارون الرشيد الخلافة بعد أن تجاوز العشرين من عمره بقليل ، وصار يلقب بأمير المؤمنين ، وامتدت خلافته إلى ثلاثة وعشرين سنة ، بلغت فيها الدولة العباسية أزهى عصورها.

كان قصر أمير المؤمنين، هارون الرشيد، يمثل ما بلغته الدولة من حالة الرخاء المادى والتقدم المعنوى والأدبى.

كانت الدولة قد استقرت الأمور فيها، وكان المال يتدفق على بغداد، وكانت موارد الدولة من الكثرة والوفرة بحيث كان لها تأثيرها فى مظاهر الحظارة وصور الترف.

ويقدر المؤرخون معدل ما كان يرد على هارون الرشيد سنويا من خراج الأقاليم بعد أن يستوفى كل أقليم حاجته، بأربعمائة مليون درهم، أو ما يبلغ نحو ثمانية عشر مليونا ونصف مليون من الدنانير، هذا إلى جانب موارد أخرى مما كانت دولة الروم تؤديه إلى الخليفة فى بعض الأحيان من جزية أو فداء عن بعض من أسر أو سبى من الأشراف والنبلاء، وقد بلغ ما أداه ملك الروم ذات مرة خمسين ألف دينار.

●●●

توقف المؤرخون طويلا أمام شخصية هارون الرشيد أمير المؤمنين، تلك الشخصية المثيرة للجدل، وقالوا الكثير عن تناقضاتها وغرابة أطوارها.

قالوا إنه كان عصبى المزاج، سريع الانفعال، حاد العاطفة، قوى الاندفاع، شديد الشعور بالحياة من جميع جوانبها، عظيم الاقبال عليها.

وقالوا إنه كان سريع التأثر بكل ما يثير عواطفه الدينية أو يمس أوتاره الروحية، فهو من أغزر الناس دموعا وقت الموعظة وأشدهم عسفا فى وقت الغضب والغلظة.

وقالوا إنه كان يصب الماء علـى يدى أبى معاوية الضرير وهو من العلماء، دون أن يعلم أبو معاوية من يكون.

وقد سأله هارون الرشيد يوما: أتدرى من يصب الماء على يديك؟

قال أبو معاوية : لا

فقال هارون الرشيد : أنا...

قال أبو معاوية : أنت يا أمير المؤمنين؟

قال هارون الرشيد : نعم، اجلالا للعلم !

وقالوا إنه كان يميل إلى حياة القصور وما فيها من لهو ، برغم ما عرف به من التقوى ، حتى إذا قرأنا سيرته لا نعرف إن كان هذا الخليفة من الأتقياء أم هو فى عداد أهل الهوى، ولعله كان بين هذا وذلك على حد قول الشاعر:

ولله منى جانب لا أضيعه

وللهوى منى والصبابة جانب

وقالوا إنه كان يقرب إليه الزهاد والنساك ويصغى إليهم فلا يلبث أن يحس بعظاتهم تصل إلى قلبه فينفعل بها وقد ملكته الخشية وأخذته الرقة وغلبته الدموع.

ومما يروى أن أحد الزهاد والنساك، واسمه « ابن السماك» قد دخل عليه ذات مرة واخذ يحدثه عن الموت والآخرة وهو يصغى إليه، إلى أن قال له : «يا أمير المؤمنين.. اتق الله وحده لا شريك له، وأعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ربك، ثم مصروف إلى احدى منزلتين لا ثالث لهما.. جنه أو نار». فبكى هارون الرشيد، وسالت دموعه حتى اخضلت لحيته، واشفق أهل المجلس عليه!

وكذلك كان شأنه حين يسمع شعر أبى العتاهية فى الزهد والموعظة، فقد بكى طويلا حين أنشده أبو العتاهية:

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس
إذا تسترت بالأبواب والحرس
وأعلم بأن سهام الموت قاصدة
لكل مُدّرع منا ومُتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليُبس

ويذكر ابن جرير الطبرى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد «كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، ولم يكن يمنعه عن ذلك إلاّ أن يمرض أو يتعرض لعلة، وكان يتصدق من ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان يحج عاما ويغزو عاما».

ويبدو غريبا وعجيبا أن يكون هذا الرجل الذى هو بهذه الصورة من التقوى ، هو نفس الرجل الذى يجمع فى قصره أكثر من الفى جارية!. والذى ينغمس فى اللهو والمتعة، ويقبل على كل ما يثير عواطفه وشهواته الحسية.. وهو أيضا نفس الرجل الذواقة للشعر والغناء والموسيقى والذى كانت مجالسه تزخر بالعلماء والشعراء والندماء.

وهو أيضا أول من غالى من الخلفاء العباسيين فى تفضيل الجوارى وتقريبهن، ومعظم أولادد كانوا من أبناء الجوارى.

●●●

وغراميات أمير المؤمنين هارون الرشيد يطول الحديث عنها.

وهى لا تقف عند زوجاته من الحرائر، اللاتى بلغ عددهن ست زوجات، وإن كان لم يجتمع معه منهن غير النصاب الشرعى، أى أربعة فقط.

ولا تقف عند الجوارى أمهات أولاده.

وإنما تتسع إلى الجوارى اللواتى كان شغوفا بأن يجمع فى قصره أكثر ما يستطيع منهن، حتى قيل أن عددهن لا يقل عن ألفى جارية! منهن المغنيات والعازفات الحاذقات، والوصيفات الخبيرات بالخدمة ومجالس الشراب، ومنهن من جئن للزينة. لجمالهن وحديثهن.

ومن أشهر غرامياته تلك التى دارت مع الجوارى الثلاث اللاتى قدمن إليه كهدية فى وقت واحد وهن : سحر، وضياء ، وخنث.

كان الذى قدمهن هو الفضل بن الربيع ، من باب التقرب إليه.

فقد دخل عليه ذات يوم ، فوجده يستمع إلى إبراهيم الموصلى وهو يغنى ، وكان بين يدى هارون الرشيد جارية عليها قميص مورد، وسراويل موردة ، وقناع مورد، كأنها ياقوتة على وردة.

وأخذ الفضل بن الربيع يحدث هارون الرشيد عن الجوارى الثلاث اللواتى عنده، ويصف محاسنهن وفتنتهن وظرف حديثهن، على نحو يستهدف إثارة اهتمامه ورغبته فى طلبهن، وهذا ما حدث.

قال له هارون الرشيد : هل تسخو نفسك بهن؟

فقال الفضل : والله، يا أمير المؤمنين ، إنى لأسخو بهن وبنفسى.

ثم قام وأتى بهن.

ورآهن هارون الرشيد ، فغلبن على قلبه، وسيطرن على عواطفه.

وقيل إن هارون الرشيد قال فيهن شعرا، ومنه هذه الأبيات المشهورة التى تقول :

ملك الثلاث الآنسات عناني
وحللن من قلبي بكل مكان
مالي ، تطوعني البرية كلها
وأطيعهن وهن في عصياني؟
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
- وبه قوين - أعز من سلطاني

وفي شعر آخر ينسب إليه أيضا أورد أسماءهن وفاضل بينهن.

ويذكرون عن سحر التي كادت تستبد بقلب هارون الرشيد أنها كانت تتدلل عليه، وتتمارض أحيانا لتزيد من حبه لها ومنزلتها عنده.

وينسبون إليه أبياتا من الشعر يذكر فيها هذا الدلال فيقول :

أيا من رد ودي أمس لا أعطيكه اليوما
ولا - والله- لا أعطيك إلا الصد واللوما
وإن كان بقلبي منك حب يمنع النوما
أيا من سمته الوصل فأغلى المهر والسوما

وأما خنث فهي الملقبة بـ «ذات الخال» وهي أشهر الجواري الثلاثة، وقبل أن تدخل القصر كانت جارية تغني في دار تضم مجلسا للغناء، وكانت رائعة الجمال بارعة الغناء، ووقع في هواها بعض الشعراء، ومنهم العباس بن الأحنف الذي قال فيها :

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى
عشير الذي ألقى فيلتئم الشعب
إذا رضيت لم يهنني ذلك الرضا
لعلمي به : أن سوف يتبعه عتب
وأبكي إذا ما أذنبت خوف صدها
وأسألها مرضاتها، ولها الذنب

وصـــالكم صـــرم، وحــبكـم قلى،
وعطفـكم صـــد، وسلمـكم حــرب

وكان ممن أولع بها أيضا ابراهيم الموصلى، وهو شاعر ومغن، قال فيها الكثيـر من المقطوعات التى لحنها وتغنى بها ، فكان ذلك من أسباب شهرتها.

ويذكر المـؤرخون أن الجارية «ذات الـخال» ملكت زمام أمـير المؤمنين هارون الرشيـد حتى أنه أقسم يوما أنها لا تســأل شيئا إلاّ قضـاه لها ، فـطلبت منه أن يولى أحد المـقربين إلـيها الـحرب والخراج بفارس مدة سبع سنين، فامـتثل لها، وكتب لها عهدا به ، وشرط على ولى عهده من بعده أن يتمها له، إن لم تتم فى حياته.

●●●

ومن الجوارى اللواتى أغرم بهن أمير المؤمنين هارون الرشيد، الجارية «ماردة» ، والتى صارت فيما بعد أم ولده المعتصم.

والقـصص التى تروى عن غرام هـارون الرشيـد بها كـثيـرة ومنهـا أنه عندما تركـها فى الرقـة وخرج فى احدى رحـلاته إلى بغداد ، لم يلبث أن اشتـاق إليها، فكتب إليها بأبيات رقـيقة يشـكو شوقه ، ويعبر فيها عن نفسه ، فيقول :

ســلام على الـنازح المـغـتـرب
تحــيـــة صـب به مكـتـــئب
غـــزال مـــراتـعـــه بالـبلـيـ
ـخ إلى ديرزكى فـجـسـر الخـشب
أيا مـن أعـــان علـى نفـــســـه
بتـــخليـــفـــه طـائعــا مـن أحب
ســأستـر ، والســتـر من شيـمـتى
هـوى مـــن أحـب بـمـــن لا أحـب

فلما ورد كتابه هذا إليها ، طلبت من الشاعر أبى حفص الشطرنجى أن يكتب لها أبياتا ترد بها على هارون الرشيد، فكتب لها هذه الأبيات التى بعثت بها إلى هارون الرشيد:

أتانى كتابك يا سيدى
وفيه العجائب كل العجب
أتزعم أنك لى عاشق؟
وأنك بى مستهام وصب؟
فلو كان هذا كذا لم تكن
لتتركنى نهزة للركب
وأنت ببغداد ترعى بها
نبات اللذاذة مع من تحب
فيا من جفانى ، ولم أجفه
ويا من شجانى بما فى الكتب
كتابك قد زادنى صبوة
وأسعر قلبى بحر اللهب
فهبنى نعم قد كتمت الهوى
فكيف بكتمان دمع سرب
ولولا اتقاؤك يا سيدى
لوافتك بى الناجيات النجب

وقد كان لهذه الرسالة أثرها، فقد أمر هارون الرشيد مغنى القصر أن يلحنوا تلك المقطوعة من شعره التى بعث بها إلى ماردة، فتفننوا فى تلحينها، وأخذوا يغنونها ، حتى جعلت أرجاء القصر تتجاوب بأصداء تلك العاطفة القوية التى صاغها هارون الرشيد شعرا، ثم أبى إلاّ أن تصاغ فوق ذلك فى ألحان وغناء وموسيقى.

●●●

ومن أغرب الحكايات التى تروى عن أمير المؤمنين صاحب الغراميات المثيرة ، حكايته مع الجارية هيلانة، التى كانت من بين الجوارى اللواتي اختصهن بحبه، فعندما توفيت هيلانة، غلب عليه الحزن، وشاع ذلك فى القصر كله، وأحس الجميع بالفجيعة التى تغمر قلب أمير المؤمنين ، فأقبلوا عليه يعزونه! وجلس هو يتقبل العزاء منهم، وأخذ شعراء القصر يكتبون على لسانه الشعر الباكى الحزين، تعبيرا عن فجيعته فى هيلانة!

ومن هذا الشعر، المقطوعة التى تقول:

أف للدنيا وللزينة فيها والأثاث
إذا حثا الترب على هيلان فى الحفرة حاث

وكذلك القصيدة التى تقول:

بت ضجيع الحزن ما أغفى
لحادث جل عن الوصف
حزنان: حزن منهما ظاهر
وأوجع الحزنين ما أخفى
أنت أهلت الترب من فوقها
مواريا تحت الثرى إلفى
لهفى على هيلانة! لو أنه
يرد شيئا فائتا «لهفى!»

●●●

وتأتى حكاية الجارية دنانير.

ودنانير كانت من أحسن الجوارى وجها وأظرفهن أدبا وأكثرهن رواية للغناء والشعر.

وكانت تكن اخلاصا شديدا لصاحبها يحيى بن خالد البرمكى وزير أمير المؤمنين.

ورآها أمـير المـؤمنين. فأغـرم بها وبفنهـا، وأخذ يتـردد على صاحبها، وأهداها يوما عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار.

كانت دنانير لا تصوم رمضان ، وكان صاحبها يحيى بن خالد البرمكى يتصدق عنها فى كل يوم من شهر رمضان بألف دينار!

وعندما لاحظت. زبيدة زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد أن زوجهـا يميل إلى حب دنانـير، أرادت أن تصرفـه عن ذلك الحب، فاشتـرت عشرة من الجوارى المليـحات وأهدتهن إليه لتـبعده عن دنانير!

لكن أمير المؤمنين ظل متعلقا بها.

وبعد نكبة البرامكة ، وفقدان دنانـير لسيدها ومولاها يحيى بن خالد البرمكى ، دعاها أميـر المؤمنين إلى قصره، وأمرها أن تغنى فقالت:

ـ يا أمير المؤمنين إنى آليت على نفس ألاّ أغنى بعد سيدى أبدا!

فغضب أميـر المؤمنين وأمر بصفعها. فـصفعت وسقطت على الأرض، وأقيمت وأعطيت العود لتغنى، فأخذته وهى تبكى وراحت تقول بصوت حزين:

لـمـــا رأيـت الديـار قــد درسـت
أيـقنـت أن النـعــيم لـم يعــد.

●●●

ويبدو غريبـا أن تشترى زوجة أمير المـؤمنين هارون الرشيد عشرة من الجـوارى المليحات لتهديهن إلى زوجهـا كى تلهيه عن حبه للجارية دنانير.

لكن الأمر لم يكن كذلك فى ذلك العهد.

فشـراء الزوجات الحـرائر للجوارى واهدائهن لأزواجـهن كان شيئا مألوفا!

والأكثر غرابة ان يذكر لنا الجبرتي مؤرخنا المصرى الشهير أن احدى زوجات أبيه كانت، «لصلاحها وبرها بزوجها، تشترى له الجوارى من مالها، وتحليهن بالذهب والثياب، وتقدمهن إليه طلبا للأجر والثواب»!

وليس الزوجات فقط هن اللاتى كن يقدمن الجوارى كهدايا.

فالخلفاء كانوا يفعلونها أيضا! كانوا يقدمون الجوارى هدايا إلى الشعراء والمقربين إليهم.

ويذكر الجاحظ فى «رسالة القيان» إن الجوارى كن بمنزلة التفاح الذى يتناقله القوم بينهم!

وحدث أن كان ابن الأنبارى يمر يوما بسوق النخاسين ، فرأى جارية أعجبته ، وتابع طريقه متحسرا عليها، فلما وصل إلى دار أمير المؤمنين سأله أمير المؤمنين عما به ؟ فروى له عن الجارية التى أعجبته ، فبعث أمير المؤمنين برجل اشترى الجارية وحمله إلى منزل ابن الانبارى!

●●●

ورغم الكثير الذى يقال عن غراميات أمير المؤمنين هارون الرشيد وتدلهه فى حب الجوارى ، فإن كثيرا من المؤرخين يعتبرونه من المعتدلين بالقياس إلى غيره من أمراء المؤمنين الذين جاءوا من بعده على امتداد الدولة العباسية!

فابنة «الأمين» كان أكثر غلوا فى التعلق بالجوارى، خاصة المغنيات منهن.

وقد حدث أن جارية له توفيت وكان متعلقا بها، فحزن عليها حزنا شديا واشتد جزعه على موتها، ولاحظت والدته وهى زبيدة زوجة هارون الرشيد أنه تأثر كثيرا، فأخذت تواسيه وتعزيه للتخفيف عنه، وكتبت له شعرا تقول فيه :

نفـــسى فـــداك لا يذهـب بك التـلف
فـفى بقـائك مـمن قـد مـضـى خلفُ

أما ابنه الآخـر وهو المأمـون. فكانت له جارية جمـيلة حظيت عنده بمـا لم تحظ به امـرأة، فحـسدتهـا نسـاء القصـر وقلن في معـايرتها «لاحـسب لها» فنـقشت على خـاتمـها تقول « حسـبى حسنى» فـازداد بها المأمون اعـجابا. وتحايل الجـوارى للتخلص منها. وقتلوها بالسم. فحزن المأمون لموتها حزنا شديدا ، ورثاها بقوله:

اخـــتلـست ريحـــانـتى مـــن يـــدى
أبـكى عـليـــــهـــــا آخــــر الأبـد
كـــانت هــى الأنس إذا اســتــوحــشت
نفـــسى مــن الأقـــرب والأبـعـــد
وروضـــة كـــان بـهـــا مـــرتـعى
ومنـهـــلا كـــان بـهـــا مـــوردى
كـــانت يـدى وكـــان بهـــا قـــوتى
فـاختلـس الـدهـــــر يـدى من يـدى!

والمأمون الذى يبكى على جاريته التى قتلوها بكل هذه الدموع، هو نفســه الذى يعبـر عما فى نفسه من عـبودية لجـارية أخرى فيقول:

لهـــا فى لحـظهـــا لـحظات حـــتف
تمــيت بـهـــا وتـحـــيى من تـريد
فــإن غــضــبت رأيـت الناس قــتلى
وإن ضــحــكت فــأرواح تعــيــد
وتســبى العــالمــين بمــقلتــيـهــا
كــأن الـعــالمــين لهـــا عــبـيــد

أما الخليفة المتوكل وهو من الخلفاء الذين وقعوا في حب الجوارى فهو يتغزل فى جارية له، ويعبر عن ولعه بها ويقول:

أمازحها فتغضب ثم ترضى
فكل مقالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسن ذى دلال
وإن رضيت فليس لها بديل

حكايات الجوارى

فى قصور الخلافة

عالم الجوارى

من الرقص والغناء ..
إلى الدسائس والمؤامرات



٢

■ على قمصان الجوارى :
أشعار الغزل .. ونداءات العشاق

■ أم الخليفة المقتدر .. جارية رومية تولت شئون الدولة ربع قرن!

■ والجارية الشيرازية .. خلعت الخليفة المتقى .. ثم « قلعت عينيه » !

يبقى عالم الجوارى هو الأكثر إثارة فى التاريخ العربى.
فقد لعبت الجوارى أدوارا مثيرة على امتداد العصور، قبل أن تطوى هذه الصفحة وتصبح تاريخا.

وأى حديث عن عالم الجوارى، لابد وأن يبدأ بالسؤال: من أين كانت تأتى الجوارى؟

والاجابة التى يقدمها المؤرخون تقول إن الحرب كانت من بين المصادر، فالأسرى من النساء كن يعتبرن من سبايا الحرب.

وإذا عدنا إلى زمن الفتوحات الإسلامية، وإلى ما أورده المؤرخون عن عدد الجوارى فى المجتمع العربى، فى ذلك الزمان، فسوف تستوقفنا تقديرات المؤرخ ابن الأثير التى تقول بأن عددهن كان يقدر بمئات الألوف!

كان لدى القواد والأمراء العشرات منهن، ولا سيما بعد أن اتجه العرب إلى شمال افريقيا والأندلس.

يذكر ابن الأثير أن غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة ٩١ هجرية قد بلغت الألوف من السبايا، وأنه بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقيل أن موسى بن نصير عندما جاء إلى دمشق استقدم معه ثلاثين ألفا من النساء القوطيات.

وبعد انتهاء زمن الفتوحات، اعتمد العرب على «النخاسين» تجار الرقيق الذين كانوا يشترون الجوارى من أوربا، خاصة التجار اليهود بالأندلس الذين كانوا يتوغلون في أوربا وينتقلون إلى روسيا أحيانا ويأتون بالجوارى السلافيات والجرمانيات اللاتى عرفن فى بلاد العرب باسم «الصقلبيات» وكانت سوقهن رائجة لبياض بشرتهن وطول أجسامهن وجمالهن.

يذكر المسعودى أن بعض النخاسين توغلوا فى بادية تركستان، واشتروا الفتيات من آبائهن، ونقلوهن إلى «سمرقند» حيث جرى تربيتهن واعدادهن إلى أن برزت معالم الجمال فيهن على النحو الذى كان يحب أسياد بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط، فاشتروهن بأغلى الأثمان.

وكان بعض الولاة يرسل ضمن خراج الاقطاع فى البلاد التى يحكمونها مجموعة من السبايا إلى الخليفة، ومن هؤلاء ابن طاهر الذى أهدى الخليفة المتوكل ٢٠٠ وصيفة!

●●●

والجوارى على أنوع.

وقد أفاض الرواة. فى ذلك الزمان، فى الحديث عنهن، وميزوا بين أجناسهن، وذكروا الفضائل والنقائض لكل جنس منهن. ومن هؤلاء الرواة ابن بطلان الذى كتب رسالة فى تصنيف الجوارى.

وفى هذه الرسالة يقول إن للهنديات حسن القوام، وسمرة الألوان، وحظ وافر من الجمال، مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن، وهن يصلحن للولد ـ أى لانجاب الأولاد!

أما القندهاريات فهن فى معنى الهنديات والسنديات، ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور.

والبربريات (أى نساء البربر) مطبوعات على الطاعة، نشيطات للخدمة، ويصلحن للتوليد لأنهن أحدب الاناث على الأولاد، وإذا اجتمعت للبربرية جودة الجنس، وشكل المدنيات، وخنث المكيات، وآداب العراقيات، فإنها تستحق أن توضع فى العيون وأن تخبأ فى الجفون!

والزنجيات مساوئهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن وتحددت أسنانهن وقل الانتفاع بهن، ولكن ليس فى خلقهن الغم، فالرقص والايقاع فطرة لهن، وطبع فيهن!

والحبشيات لهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها، ولا يصلحن للغناء أو الرقص.

والبجاويات حسنات الوجوه، ناعمات البشرة، وهن جوارى متعة!

والتركيات يجمعن بين الحسن والبياض والنعومة، وعيونهن مع صفرها ذات حلاوة، وقدودهن ما بين الربع والقصر، والطول فيهن قليل، وهن كنوز الأولاد، ومعادن النسل.

والروميات بيض شقر طوال الشعور، زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة.

أما الأرمنيات، فلهن أقبح الأوصاف، وأشنع الصفات!

●●●

وتختلف أثمان الجوارى باختلاف أجناسهن، والفنون التى يجدنها ، والعصر الذى يعشن فيه.

ففى زمن الفتوح وتدفق السبايا كانت تنخفض الأسعار لكثرة العرض وقلة الطلب، فقد تباع الجارية الجميلة المثقفة بأقل من مائة دينار.

أما إذا قل العرض وكثر الطلب، فإن أثمانهن تعود إلى الارتفاع

ويرتفع ثمن الجارية التى كانت تباع بمـائة دينار، إلى ما هو أكثر من ألف دينار.

وبعض الخلفاء كان يدفع عشرات الألوف من الدراهم والدنانير لشراء جارية.

ويذكر المؤرخون أن سعيد أخـو سليمان بن عبدالملك اشترى مغنية مـشهورة بحسن غنائـها وروعة جمالهـا بمليون درهم، أى ما يعادل سبعين الف دينار.

واشترى يـزيد بن عبدالملك الأموى المـغنية سلامة بعـشرين الف دينار

واشترى هارون الرشيد احدى جواريه بمائة الف دينار.

ورغب محمد الأمين يوما «وهو ابن هارون الرشيد» أن يشترى جارية اسمـها «بذل» من جعفر بن المعـادى. لكنه رفض، فملأ له قاربا ذهبا وأرسله إليه، لكنه لم يقبل وفضل الاحتفاظ بالجارية!

وأشار الجاحظ فى كتابه رسالة القيان إلى جارية تعرف باسم «حبشية» بيعت بمائة وعشرين الف دينار. وقال إن اسم «حبشية» اطلق عليها لحفظها من الحسد والعين الشريرة!

كان عدد الجوارى يزيد على عدد الحرائر فى منازل كبار القوم والأثرياء فى تلك الأيام.

ويذكر الجاحظ أن الجوارى كن من نفـيس المتاع الذى يتهاداه الناس!

وقد أحصى عـدد الرقيق الذين كانوا بحوزة الخليـفة الراشدى الثالث فإذا به يزيد على الف.

وكان مـعاوية يؤتى بالجـوارى فيوزعـهن على المقـربين إليه، ويعهد لبعضـهن بالوقوف من ورائه ليدفعن عنه الذباب، وليروحن له بالمراوح، أو ليأتينه بما يحتاج إليه من شراب.

وكانت الجوارى من الهدايا المألوفة التى يهديها الخلفاء إلى الشعراء والمقربين إليهم.

وكان بعض الخلفاء ينفق فى اطعام جواريه كل يوم مائة دينار.

● ● ●

ونأتى للجوارى المثقفات.

الجوارى اللواتى يحذقن أساليب التعبير، وهؤلاء كان يجرى إعدادهن للمهمة التى سيضطلعن بها فى ميادين الأدب والغناء.

وطبيعى أن الجمال كان شرطا أساسيا.

وكان أصحابهن، خاصة الخلفاء، يعهدون بهن إلى علماء اللغة ليأخذن عنهم أسرار اللسان.

يذكر كتاب المحاسن والأضداد أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرسل فى طلب الأصمعى ليعرض عليه جاريتين أهديتا إليه، فوجد أن احداهما لا تحتاج إلى مزيد من العلم، فهى كاملة الأدب، فصيحة اللسان، تروى الأشعار، وتحفظ القرآن والحديث، وتجيد نظم الشعر!

وكان أصحاب الجوارى الجميلات المثقفات يفخرون بهن كما يفخر كل إنسان بما يملك من ثمين المتاع والنفائس! وكانوا يأذنون لهن حينا بالظهور على الأصدقاء، أو يقيمون بينهن وبين أصدقائهم حجابا، فيجلسن وراءه ويغنين.

وكثيرات هن الجوارى اللواتى كن يجارين الشعراء فى الارتجال، يقارعنهم مقارعة الند للند ويكتب لهن النصر والتفوق.

وتعد الجارية «عنان» واحدة من هؤلاء، وقد عاصرت الشاعر أبو نواس وكان لها به صلات وثيقة، فكان يتردد مع رفاقه على منزل صاحبها، فيجلسون إليها ويتناشدون فتشاركهم فى النظم وتبذهم أحيانا.

ولم تكن الجارية التى تسحر اللب بحسنا وعلمها نادرة فى ذلك الحين، فقد كن كثيرات.

كان الغناء شرطا أساسيا من شروط الحسن، وكان المغنون يشترون الجوارى بأثمان زهيدة، ويعلمونهن فنون الغناء، ثم يبيعونهن بأثمان عالية فيربحون الكثير.

وكان الخلفاء وأصحاب الشأن آنذاك إذا استمعوا إلى لحن وأعجبوا به، يطلبون القاءه على جارية من جواريهن لتحفظه وترده عليهم عندما يشاءون.

●●●

ويذكر محمد جميل بيهم فى كتابه المرأة فى حضارة العرب أن خلفاء بنى أمية كانوا يلتمسون الأدب وفنون الغناء عند الجوارى المثقفات الشهيرات، وأنهم كانوا يقدرون الجارية بقدر ما عندها من الفنون والعلم والأدب، وبذلك حسنت منزلة السبايا والجوارى، وتسامح الناس فى مساواة أولادهن بأولاد الحرائر حتى بلغ بعضهم منصب الخلافة.

وقال إن مغالاة الخلفاء والكبراء فى أثمانهن كانت السبب فى حرص «النخاسين» على تعليمهن واتاحة الفرص الكثيرة لنبوغهن فى الآداب والغناء والموسيقى، ولكن هذا النبوغ لم يكتمل إلاّ فى العصر العباسى.

وقد اشتهرت بين جوارى الأمويين: سلامة وحبابة والزلفاء.

والزلفاء هى التى قال فيها الشاعر :

إنما الزلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان

وحققت الجارية سلامة شهرة واسعة فى الغناء، وعندما سمعها عبدالرحمن بن عبدالله المعروف بالقس لزهده، شغف بها ونظم فيها الأشعار، وقال فى وصف صوتها:

ألم تـرها ، لا يبـــعـــد الله دارهــــا
إذا طربت فى صــوتهـــا كـيف تصنع؟
تـمـــــد نظـام الـقـــــول ثم تـرده
إلى صلصل من صــوتهــا يـتــرجع

وقال إن يزيد بن عبدالملك أميرالمؤمنين كان مغـرما بالجارية «حبابة» وأن هذا الغـرام قد أكسبهـا شهرة واسعة خـاصة عندما قال فيها قصائد الشعر التى تعبر عن عشقه وغرامه. ومنها قوله:

أبلغ حـبــابة، أسـقى ربعـهـــا المطر،
مـــا للـفــؤاد ســوى ذكـــراكم وطر

وقيل أن أخو يزيد واسمه «مسلمة» دخل عليه يوما وقال له :

ـ يا أميـر المؤمنين تركت الظهـور للعامة، والشـهود للجمـعة، واحتجبت مع هذه الأمة «أى الجارية».

فخجل يزيد، وظهر للناس، وأهمل الجارية حبابة.

لكن حبـابة لم تستسلم وطلبت من الشاعـر الأحوص أن يكتب أبياتا يرد بها على ما قاله مسلمة لأخيه يزيد.

فكتب الشاعر الأحوص يقول :

ألا لا تلـمــــه الـيــــوم أن يـتـــبـلدا
فــقــد منع المـــحـــزون أن يتـــجلدا
إذا أنت لم تعـشــق ولم تدر مــا الهــوى
فكن حـجـرا من يابس الصخـر جلمـدا
هل العـــيش ألا مـــا تـلذ وتشــتـــهى
وإن لام فـــيـــــه ذو الـشنان وفـندا؟

وأخذت حبابة هذا الشعر وراحت تغنيه.

فلما سمعها يزيد ضرب الأرض وقال:

- صدقت يا حبابة.. على مسلمة لعنة الله!

ثم عاد إلى سيرته الأولى معها.

●●●

ومن شهيرات جوارى الخلفاء فى العهد الأموى أيضا هناك الجارية «نعمة».

والجارية نعمة كانت لرجل اسمه طريف بن نعيم، فاغتصبها منه الحجاج وأرسلها إلى عبدالملك بن مروان فى دمشق.

ولم يطق صاحبها طريف بن نعيم فراقها، فترك العراق وجاء إلى دمشق، وكتب رسالة إلى عبدالملك بن مروان يطلب فيها أن يسمح له بسماع جاريته نعمة وليفعل به بعد ذلك ما يشاء.

ولم يغضب عبد الملك بن مروان من الرسالة رغم ما كان يعرف عنه من الشدة، وسمح له بسماع جاريته.

وبعد أن انتهت الجارية من الغناء، قام طريف بن نعيم والقى نفسه من مكان شاهق فمات فى الحال.

وتأثر عبدالملك بن مروان بذلك وقال لغلامه: يا غلام خذها «الجارية» فأعطها لورثته، أو فتصدقوا بها عليه.

فلما نزلت الجارية معهم، نظرت إلى حفرة معدة للسيل، فجذبت يدها من الغلام والقت بنفسها فى الحفرة وهى تقول :

من مات عشقا فليمت هكذا
لا خير فى عشق بلا موت

●●●

وقد بسط أمير المؤمنين هارون الرشيد رعايته على فن الغناء والمغنين، وأظلهم بحمايته مما عسى أن يحدث لهم فى حياتهم من ضيق، وأجزل لهم العطاء إلى حد لم يبلغه أحد من قبله.

ويذكر اسحاق بن إبراهيم الموصلى أن أباه اخذ من أمير المؤمنين هارون الرشيد أكثر من مائتى الف دينار، وأن أمير المؤمنين كان يتعهد المغنين ويسأل عنهم، ويزور مريضهم، وكان يحفظ للرجل منهم عهده ويرعى حرمته إذا قضى نحبه.

ومن الحكايات التى رواها المغنى إبراهيم الموصلى، أن زميلاً له اسمه زلزل الضارب كانت له جارية جميلة، تولى تربيتها وعلمها فنون العزف، وكان يخشى عليها ويصونها من أن يسمعها أحد فيتعلق بها.

وبعد وفاة زلزل الضارب عرضت جاريته ضمن ميراثه للبيع، وعلم بذلك إبراهيم الموصلى فحزن على زميله وعلى مصير جاريته التى تعرض مع ميراثه للبيع، وذهب إلى أمير المؤمنين وحكى له عن زلزل الضارب وعن جاريته المعروضة للبيع.

وتأثر أمير المؤمنين بما سمع.

وأمر باحضار الجارية ثم سألها :

ـ أتحبين أن أشتريك؟

فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين ! لقد عرضت علىّ ما يقصر عنه الأمل.. ولكن ليس من الوفاء أن يملكنى أحد بعد سيدى زلزل الضارب، فينتفع بى!

فأمر أمير المؤمنين بأن تشترى وتعتق.

وظل يكفلها إلى أن ماتت!

●●●

انتشرت مجالس الغناء فى عصر أمير المؤمنين هارون الرشيد، وأصبحت هذه الظاهرة الفنية فى كل مكان، وليس فقط فى قصور الخليفة والأمراء والوزراء وبيوت الأغنياء.

وشغف الناس جميعا بالغناء.

وأقام «النخاسون» أصحاب الجوارى المغنيات بيوت للسماع فى الأحياء المختلفة وكثرت هذه البيوت فى بغداد تسمى «بيوت القيان» أى بيوت الجوارى المغنيات السميراء

وكانت هذه البيوت تلقى إقبالا شديدا من الناس يقصدونها للسماع. لما يتوافر فيها من تهيئة جميع أسباب والأنس.

يذكر كتاب «الامتاع والمؤانسة» أن ابن فهم الصوف شغوفا بسماع غناء جارية اسمها «نهاية» وهى جارية يعرف باسم ابن المغنى. وكان يصل به التأثر إلى الحد يجعله يضرب بنفسه الأرض ويتمرغ فى التراب، ويهيج فإذا دنا منه أحد عض أصبعه وركله برجله!

أما أبو الحسن الجراحى القاضى الوقور فكان شغوفا جارية اسمها «شعلة» وكان يصل به التأثر إلى الحد الذى يبكى حتى تبتل شيبته بالدموع. فيرق له الحاضرون، و دموعهم رقة عليه!

وابن غيلان وهو من كبار الأعيان كان شغوفا بسماع اسمها «بلور» وهى جارية لرجل اسمه ابن اليزيدى، وكان به التأثر إلى الحد الذى يجعله يسقط مغشيا عليه، فلا يست بعد أن يغمروه بالكافور وماء الورد، ويقرأون فى آ الكرسى والمعوذتين!

وأبوسليمان المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى التوحيدى كان شغوفا بسماع جارية اسمها «بسمة».

وقد أحصى أبوحيان التوحيدى مجالس الغناء على ذ

دجلة حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة فوجدها تبلغ ٤٦٠ مجلسا، يضم كل مجلس جارية من الجوارى المغنيات.

●●●

كان الغناء فى ذلك العصر بالشعر العربى السهل، القريب المعنى، الرقيق الكلمات، السائغ اللفظ والوزن. وكانت المعانى تدور فى معظمها حول العشق والغرام، والهجر والوصال.

● فالجارية «قنوة» كانت تغنى

ياليتنى أحيا بقربهم
فإذا فقدتهم انقضى عمرى

● والجارية «سندس» كانت تغنى

مجلس صبين عيدين
ليسا من الحب يخلوين
قد صيرا روحيهما واحدا
واقتسماه بين جسمين
تنازعا كأسا على لذة
قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا يحسن إلاّ إذا
أدرتها بين محبين

● والجارية «درّة» كانت تغنى :

لست أنسى تلك الزيارة لما
طرقتنا وأقبلت تتثنى
كم ليال بتنا نلذ ونلهو
ونسقى شرابنا ونغنى
هجرتنا فما إليها سبيل
غير أنا نقول كانت وكنا

وهكذا كان الشعر الغنائى سهلا، والمعانى قريبة.

وهذا الشغف بالغناء كـان من عوامل تنمية الأحاسـيس الفنية، وقد استلزم بطبيعـته تلقين الجوارى فنون الغناء والعزف بالآلات ومعـرفة فنون الشعر والأدب والـرواية والقصص والتندر، وذلك ليتم الاستمتاع فى مجالس الطرب بكل هذه النواحى مجتمعة.

وقد وصل الغناء على أيدى الجوارى فى ذلك العـصر إلى أبعد غاية من التقـدم والسمو، ويذكر المؤرخـون أن مجالس الغناء فى عصر هارون الرشيد أمير المؤمنين كانت تعد من عجائب الفن!

●●●

وتفننت الجـوارى فـى أسالـيب الفـتنة والاغـراء للتـقـرب من مواليهن، ووصل هذا التفنن إلى حـد أن قمصان الجوارى المطرز بالذهب والفـضة، كـان يكتب عليـها أشـعـار الغزل التى تخـاطب العشاق.

● فالجـارية عبيـر كانت تكتب على صـدر قميـصها بالفـضة والذهب أبياتا تقول:

يـا فـــتى قـلـت إذ دعـــانى هـواه
مـــسـتـجـيـبـا لصـوته لـبـيكا
مـــا بـكت مـــقلتـى لفــــقـــدك إلاّ
جــزعــا أن أمـــوت شـــوقــا إليـكا

● والجـارية عريب كـان لهـا ثوب مطرز بالذهب، مكتـوب فى وشاحه:

وإنى لأهواه مـــســيــئـــا ومـــحـــسنا
وأقــضى عـلى قلبـى له بالذى يـقــضى
فـــحــتى مـــتى روح الرضى لا ينـالنى
وحــتـى مـتى أيام ســخطك لا تمــضى

وكتبت أيضا على كمه:

إذا صــــد من أهـوى وأسلمـنى الـكرى
فــفـرقــة من أهوى أحــر من الجمــر

● وكتبت الجارية «ضحى» على وشاح قميصها:

شكوى فـتاة وفـتى.. يعشـقهـا وتعشــقه
نار الهـوى دانيــة.. تحـرقـهـا وتحـرقـه
يا حـبــذا الحب إذا.. دام ودامت حــرقـه

● وكتبت جارية الأحدب على وشاح قميصها تقول:

إذا وجـدت لـهـيب الشــوق فى كــبدى
أقــبلت نحــو ســقــاء القــوم أبتــرد
هبـنى طفــئت ببــرد الـمــاء ظـاهره
فــمن لحّــر عـلى الأحــشــاء يتــقــد

● وكتبت جارية أبى حرب على رداء لها:

مــن ألــف الــحــب بــكــى
من شـــفــــه الشــــوق شـكا
مـن غـــــاب عنـه ألـفـــــه
أو صـــــــد عـنـه هـلـكـا
يـا مــــــالـكا عـــــذبـنـى
بـجـــــــوره إذ مـلـــكـا
رفـــقـــا بمـــملـوكك مـــا
يـحـــلّ ذا الظـــلــم لـــكـا

● وكتبت الجارية «شمائل» على قلنسوتها تقول :

الحب يـعـرف فى وجـوه ذوى الهــوى
بالــلحظ قــبل تصــافح الأجــفــان

● وكتبت جارية على عصابة حول رأسها:

مـــــا كـنت إلاّ حـلـمـــــا
رأيتـــــه عـــــينى فـى الوســن
يـا ســــمح الـفـــــعل ويـا
أحـــــسن مـن كـل حـــــسن

● وكتبت الجارية «بنان» وهى جارية «الخيزران» والدة هارون الرشيد أمير المؤمنين، على رداء لها يلبس فوق الثياب وهو مشقوق من الأمام:

لـم تـقـل قــــولا ولكـن حـلـفـت
أنهــــا أحـــــسن عـــــين أطـرقت
زعـــمت أنـى قــد لاحـظتــهــــا
أى عـــين لحـظت فـــاعـــتـــرفت
أظهــرت حـجـة مـن يعـشـقـهـا
واســتـــبـاحت غـــفلة وانصـــرفت

● وكتبت أيضا على كمها :

ليـس بى صـــبـــــر ولا بـى جلـد
قـــــد نـفى حـــــبـك عنـى جلـدى

وكانت الآلات الموسيقية تهدى إلى الجوارى ومنقوش عليها أبيات من الشعر الغزلى.

فقد أهدى أحد الأدباء إلى جارية كان يهواها واسمها «قينة» عودا كتب عليه:

بكيـت من طرب عند السـمـاع كـمـا
يبكى أخـو قـصـصى من حـسن تذكـيـر
وصـاحـب العـشق يبـكى عند شـجـوته
إذا تجــــاوب صـــوت الـبم والـزير

●●●

والكلام عن مؤامرات الجوارى ودسائسهن فى قصور الخلفاء يملأ مجلدات، خاصة فى الأحداث الكبيرة التى تتعلق بخلع خليفة ومبايعة آخر.

وكثيرة هى الأدوار التى قامت بها الجوارى فى تاريخ الدولة العباسية على وجه الخصوص، والأمثلة كثيرة ومثيرة.

فالجارية أم الخليفة المقتدر خدعت كل الذين عملوا على تولية ابنها وكان لا يزال صبيا صغيرا فى الثالثة عشرة من عمره، ظنا منهم أن بوسعهم التصرف باسمه فى شئون الخلافة كما يشاءون لصغر سنه، فإذا بهم يواجهون موقفا صلبا من أمه التى كانت جارية رومية. فقد قبضت على شئون الدولة بحزم وحنكة مدة ربع قرن، وهى أطول مدة تولى فيها خليفة عباسى الحكم آنذاك.

وقد تعرض الخليفة للخلع مرتين خلال هذه المدة، لكن أمه استطاعت أن تعيده إلى كرسى الخلافة فى مواجهة خصومه، وإن كانت حياته قد انتهت بعد ذلك بالقتل.

أما الجارية الشيرازية التى اسمها «حُسن» فقد لعبت دورا مثيرا فى البلاط أيام الخليفتين «المتقى والمستكفى».

فهى التى سعت فى اقصاء الأول عن الخلافة وهو «المتقى بالله». ولم تكتف بذلك، فقد أوعزت إلى غلامها واسمه السندى بأن يقوم «بقلع عينيه» عندما أحجم القواد عن فعل ذلك. وقام الغلام بالمهمة التى كلفته بها الجارية!

ولم يقف دور الجارية «حُسن» عند ذلك، فقد تسلطت على الخليفة الثانى وهو «المستكفى بالله» حتى أقضت مضجعه، ثم قضت عليه فيما بعد.

ويذكر التاريخ، فى الحديث عن أبناء الجوارى الذين تولوا الخلافة، أن أحدهم وهو «الخليفة الطائع» قد اندثرت فيه جميع

ملامح الجنس العربى. فكان شبيها بسكان المناطق الشمالية الباردة فى أوربا. فهو حسب وصف المؤرخين «أبيض، أشقر البشرة والشعر، أزرق العينين، طويل القامة، حسن الجنس، شديد القوة»!!

●●●

وفى هذا السياق، سياق الحديث عن أبناء الجوارى والإماء الذين تولوا الخلافة، يقول ابن حزم فى كتابه نقط العروس أنه «لم يل الخلافة فى الصدر الأول من كانت أمه من الإماء «الجوارى» سوى يزيد وإبراهيم ابنى الوليد، ولم يل الخلافة من بنى العباس من كانت أمه حرة سوى العباس الملقب بالسفاح والمهدى والأمين، ولم يل الخلافة من بنى أمية بالأندلس من كانت أمه حرة أصلا».

حكايات الجوارى

فى قصور الخلافة

غراميات أخت أمير المؤمنين

وكيف قامت بدور الجارية فى ليلة الزفاف الخفى؟



٣

■ زوجة أمير المؤمنين تكتشف السر بعد إنجاب طفلين

■ النهاية المأساوية للعاشقين وكيف صورها المؤرخون؟

■ غراميات أخت أمير المؤمنين.. هل كانت السبب فى نكبة البرامكة؟

ويأتى الحديث عن «العباسة» أخت أمير المؤمنين هارون الرشيد، صاحب الغراميات الشهيرة مع الجوارى.

والعباسة كانت أديبة وشاعرة، وكانت تجمع إلى جانب جمالها وفتنتها، الذكاء الخارق والمعرفة الدقيقة، والصوت الحسن، والصفة الموسيقية.

وكان أخوها أمير المؤمنين هارون الرشيد، يبالغ فى احترامها، وفى الرغبة فى مجالستها.

ومما يروى عن أمير المؤمنين هارون الرشيد، أنه خرج إلى إيران وصحب معه أخته العباسة، وسمعها وهى تغنى من كلماتها:

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه
وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه
تنشق يستشفى برائحة الركب

وأدرك هارون الرشيد أنها اشتاقت إلى العراق وأهله فأمر بردها.

وفى حديثه عن شعر العباسة يقول محمد جميل فى كتابه المرأة فى حضارة العرب أن أشعار العباسة خرجت من إطار

الشعر النسائي القديم إلى نطاق الغزل حتى أن سامعها أو قارئها يشعر أنها تصدر عن قلب مفعم بالغرام.

وديوانها الذي يحفل بهذا اللون من النظم يدل ضمنا على تطور روح العصر، وتبدل المقاييس العامة أسوة بما حدث في الأندلس، ولولا ذلك لما استطاب هارون الرشيد استرسالها في أنواع الغزل.

ويمضي في تقييمه وتحليله لشعر العباسة فيقول: ولعلها كانت في الشعر حكيمة أكثر منها شاعرة، فهي تقول:

إني كثرت عليه في زيارته
فملّ والشيء مملول إذا كثرا
ورابني منه أني لا أزال أرى
في طرفه قصر عني إذا نظرا

فما أبلغ الاعتذار في البيت الأول، وما ألطف استخراج خبايا الحبيب في البيت الثاني.

ولها أيضا شعر حكيم كأنها تعطي فيه درسا في الحب، فهي تقول:

بني الحب على الجود فلو
أنصف المحبوب فيه لسمح
ليس يستحسن في حكم الهوي
عاشق يحسن تأليف الحجج
وقليل الحب صرفًا خالصا
هو خير من كثير قد مزج

●●●

وتذكر جارية المأمون واسمها «عريب» وكانت هي الأخرى أديبة وفنانة، أنها اجتمعت ذات يوم مع العباسة وكان عندها

يعقوب وكان من أحسن الناس في الزمر». وأخذت العباسة تغنى من شعرها ويعقوب يزمر لها، فكان هذا اليوم من أجمل الأيام فى حياتها، كانت العباسة تغنى للحب وتقول:

تحبب فإن الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصر فإن حدثت أن أخا الهوى
نجا سالما فارج النجاة من الحب
وأطيب أيام الفتى يومه الذي
يردع بالهجران منه وبالعتب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضي
فأين حلاوات الرسائل والكتب؟

ويبدو أن العباسة وهى تغنى للحب، على هذا النحو، لم تكن تدرى النهاية الحزينة التى تنتظرها مع نداء الحب.

ونأتى للحكاية.

●●●

والحكاية هى حكاية العباسة مع جعفر البرمكى، وهى من حكايات العشاق التى تتوافر لها كل عناصر التشويق والإثارة.. وقد توقف المؤرخون عندها طويلا، وتناولها بصورة تثير العواطف وتستدر الدموع، للنهاية المأساوية التى انتهت بها حياة العاشقين.

وكاتبنا جمال بدوى واحد من هؤلاء الكتاب الذين استوقفتهم حكاية «العباسة» أخت أمير المؤمنين، وأفاض فى الحديث عنها فى كتابه «مسرور السياف وإخوانه» واعتبر العباسة وصاحبها من شهداء الغرام.

يقول جمال بدوى: كانت قصة «العباسة» أخت الخليفة هارون

الرشيد مع وزيره جعفر البرمكى من نماذج الغرام الذى نشأ وترعرع فى أحضان السياسة وقصور الحكم، وتحت رعاية الخليفة نفسه.. ثم دارت الأيام وتغيرت الظروف وتقلبت الأحوال، وصارت قصة العباسة وجعفر سببا من أسباب النكبة التى حاقت بالبرامكة.

وإذا كانت فواجع الحب التاريخية قد انتهت بالقضاء على أبطالها وحدهم، فإن قصة العباسة وجعفر قضت على مصير أسرة بأكملها، وأتت نيرانها على بيوتهم من عروشها، وكانت سببا فى زوال دولة احتلت فى التاريخ مكانا ساميا.. هى دولة البرامكة.

القصة مغرقة فى الرومانسية، ولولا أن مؤرخى الإسلام الأوائل سجلوها وعرضوها عرضا وافيا لقلنا إنها من وحى الخيال، أو من ابتداع مؤلف من كتاب الأدب الرومانسى الذى انتشر فى أوروبا فى العصور الحديثة، وقد اكتملت للقصة كل أركان الإثارة والتشويق والنمو الدرامى،.. فنحن أمام أبطال ليسوا من عامة الناس، بل من قمة الهرم الاجتماعى فى العصر العباسى الأول، والأحداث تنمو فى تطور طبيعى يتناغم مع ظروف الزمان والمكان. والأبطال يتحركون وفق إرادتهم دون إدراك لما يخبئه لهم القدر إلى أن تصل الاحداث إلى قمة الفاجعة.. تماما كما كان يحدث فى المآسى الإغريقية!

●●●

والقصة كما تناولتها كتب التاريخ بسيطة فى عناصرها، فالخليفة هارون الرشيد كان يحب أخته حبا كبيرا ولا يستطيع الافتراق عنها، فهى ظريفة ولطيفة تستطيع أن تستحوذ على اهتمامه بحديثها العذب وروحها المرحة، وهو فى نفس الوقت

يحب صديقه «جعفر» بنفس القوة، ولا يقدر على مفارقته.

لقد تكون من هذا الثلاثى المرح ـ الرشيد والعباسة وجعفر ـ فريق متماسك تجمع بينهم العاطفة والألفة والحب، وصارت سمعة الفريق حديث قصر الخلد، بل حديث بغداد كلها.

وصار الناس يتناقلون أخبارهم ونوادرهم بشيء من النقد اللاذع، إذ كيف يسمح خليفة المسلمين لأخته بمجالسة رجل غريب لا يربطه بها عقد أو عهد؟

ووصلت الأقاويل إلى أسماع الرشيد فأخذ يدبر لخطته.

تفتق ذهن الخليفة عن حل هو أقرب إلى الحيلة.. ظاهره احترام الشرع، وباطنه الخديعة والكذب.. فقال لأخته العباسة وصاحبه جعفر: تعرفان أننى لا أستطيع فراقكما.. كذلك لا أستطيع مخالفة الشرع.. وسأعقد بينكما عقدا شرعيا.. وما إن سمع الاثنان بهذا الاقتراح حتى ارتفع صوتاهما بالفرحة.. ونهضا يقبلان الرشيد ويدعوان له بطول العمر.. فقد آن الأوان لكى يجمع بينهما عش الزوجية بعد أن طال بهما العهد فى حب صامت مكبوت.. ولكن الفرحة لم تتم.. فقد عاجلهما الرشيد بقوله: ولكن لا يكون بينكما ما يكون بين الرجل وحرمه (!)

ووقعت العبارة الأخيرة على العباسة وقع الصاعقة، وذابت الفرحة على وجهيهما، وحلت محلها مسحة من الكآبة، ولكنهما لم يظهرا ما فى نفسيهما من لوعة، وتقبلا القرار صامتين.

ومرت الأيام. والثلاثة يجتمعون على هذه الحال.. يسهرون ويسمرون، فإذا حان موعد الفراق عاد كل منهم إلى مخدعه.. ولكن.. هل كان من الممكن أن يستمر هذا الزواج الصورى بين عاشقين يود كل منهما أن تكتمل سعادته تطبيقا لما نصت عليه بنود العقد؟!

كان من المحال أن يبقى الحال على ما هو عليه.. وكان لابد من إنهاء هذه اللعبة الخطرة التى أراد بها الرشيد التحايل على الشريعة، وحرمان المحبين من الحق الذى كفلته الشريعة والطبيعة معا.. ولكن من الذى يبدأ؟

العباسة ؟ أم جعفر ؟

فى مثل هذه المواقف الحاسمة تكون المرأة أشجع من الرجل فى التصرف واتخاذ القرار.

لقد قررت العباسة أن تمضى إلى غايتها حتى لو غضب أخوها الخليفة، ورفض زوجها جعفر.

لقد أعيتها كل الحيل فى إقناع جعفر بحقها فى اللقاء به كما يلتقى الأزواج، ولكنه كان يرفض وينأى بجانبه، إذن لا مفر من الحيلة.

وذهبت إلى أم جعفر واسمها «عتابة» وطلبت منها أن تقدمها إليه تحت جنح الظلام على أنها جارية.

وكان من عادة «عتابة» أن تقدم إلى ابنها جارية كل ليلة خميس، ولا بأس عليها أن تقدمها له، وهو فى نشوة السكر، على أنها جارية الأسبوع، ولكن الأم خافت على ولدها من بطش هارون الرشيد إذا علم، فطمأنتها العباسة، واستخدمت معها كل أساليب الإغراء والتهديد حتى قبلت.

●●●

وفى الليلة الموعودة ذهبت العباسة إلى مخدع جعفر دون أن يتبين ملامحها وهو يظنها جارية.. وتم بينهما اللقاء.. وبعد أن أفاق جعفر من نشوته قالت له العباسة:

كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟

قال : ماذا تقصدين.. وأى بنات الملوك أنت ؟!

قالت : أنا مولاتك وزوجتك العباسة.

وأضاءت سراجا بدد ظلام الغرف!!

ذعر جعفر ونهض من فراشه كمن لسعته عقرب، وهرع إلى أمه وهو يصيح: لقد بعتني والله رخيصا.. !!

وتحقق للعباسة ما أرادت..

وتكرر لقاء الزوجين فى السر.. وأثمرت العلاقة بينهما طفلين.

وحين خافت العباسة على ولديها من بطش الرشيد بعثت بهما إلى مكة المكرمة ليعيشا فى كنف البيت الحرام ومعهما من الخدم والحشم والمال ما يكفل لهما حياة كريمة.

لم يكن من المعقول أن تستمر الأحداث فى طريقها دون علم الرشيد، ففى مجتمع مثل المجتمع العباسى كان من الصعب الاحتفاظ بأسرار حدث جلل مثل زواج العباسة من جعفر.. وتدخلت عوامل التآمر والوشاية لتضع القصة بكاملها أمام الرشيد.

وكانت الواشية زوجته زبيدة التى ساءها أن يصل البرامكة إلى ما وصلوا إليه من سؤدد.

روت زبيدة لزوجها هارون الرشيد تفاصيل قصة جعفر مع العباسة.

وأذهلت المفاجأة هارون الرشيد، وسألها عن الدليل؟

قالت : أى دليل أدل من الولد.

قال : وأين الولد؟

قالت : فى مكة.

وأضافت : ما فى قصرك جارية إلاّ وقد علمت به.

●●●

تلقى هارون الرشيد الصدمة العنيفة مذهولا.. واتخذ قراره

بالانتقام من أخته ومن جعفر ومن ذريتهما.

وقد روى الاتليدى فى كتابه أعلام الناس كيف كان الانتقام. قال:

« لما علم الرشيد أن جعفر قد خانه فى أخته نادى خادمه واسمه مسرور وقال له: يا مسرور إذا كان الليلة بعد العتمة فاتنى بعشرة من الفعلة أجلادا ومعهم خادمان، قال: نعم. فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة والخادمان، فقام الرشيد وهم معه حتى أتي المقصورة التى فيها أخته العباسة، فنظر إليها وهى حامل، فلم يكلمها فى شىء، ولم يعاتبها على ما فعلت، وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هى، وقفل عليها فلما علم أنه استوثق بها دعا بالفعلة ومعهم المعاويل والزنابيل، فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسى، ثم قال: حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك الحفرة، ثم قال: ردوا التراب عليه، ففعلوا وسووا الموضع كما كان، ثم أخرجهم وقفل الباب، وأخذ المفتاح معه وجلس فى موضعه والفعلة والخادمان بين يديه، ثم قال يا مسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم، فأخذهم مسرور ووضعهم فى (أجولة) وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى نهر الدجلة».

وهكذا انتهت حياة العباسة.

أما عن مصير الطفلين فيروى الاتليدى أنه بعد مقتل البرامكة أحضر الرشيد من مكة ولدى جعفر من أخته، فلما رآهما أعجب بهما وكانا فى غاية من الحسن والجمال، فاستنطقهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية، وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة، فقال لكبيرهما: ما اسمك يا قرة عينى؟

فقال : الحسن.

وقال للصغير: وما اسمك يا حبيبى؟ قال: الحسين.

فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا، ثم قال: يعز علىّ حسنكما وجمالكما لا رحم الله من ظلمكما، ولم يدريا ما يراد بهما.. ثم دعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما.

وأما جعفر فكانت نهايته هو الآخر على يد مسرور السياف.

●●●

وفى تحليلة للقصة ووقائعها يقول جمال بدوى: إن المؤرخين الأوائل من أمثال الطبرى وابن كثير والمسعودى سجلوا هذه الحادثة ضمن تفسيراتهم لأسباب نكبة البرامكة. ومع ذلك فإن ابن خلدون ومعه بعض المؤرخين المحدثين يشككون فى صحتها دون أن يقدموا أسانيد منطقية لرفضهم لها، فهم فقط يستبعدون أن يسمح الرشيد بزواج أخته ـ سليلة الشرف والحسب والنسب ـ من وزير صعلوك لا يرقى إلى مستوى البيت العباسى، ثم يمضى هؤلاء الرافضون فى الاستدلال على وجهة نظرهم، بأنه لو صح أن جعفر خان العهد الذى قطعه على نفسه بعدم الاقتراب من زوجته العباسة، فإن الجزاء كان ينبغى أن يقع عليه وحده ولا يمتد إلى غيره من أفراد الأسرة البرمكية، ولكن الطامة عمت الجميع فلم يفلت منهم أحد، وكان التنكيل من القسوة بحيث شمل الحبس والضرب ومصادرة الأموال والضياع والعبيد، مما يوحى بأن هدف النكبة لم يكن عقوبة فرد، بل تصفية أكبر مراكز القوى فى العصر العباسى، والإطاحة بالمجد الذى حققته الأسرة البرمكية منذ نشوء الدولة.

من نقطة الرفض لقصة العباسة وجعفر، كان على هؤلاء المؤرخين أن ينطلقوا فى البحث عن مبررات أكثر إقناعا من

«خيانة» فرد مارس حقوقه الشرعية مع زوجته. فهو لم يرتكب إثما يبرر الإعدام (!!). ويرى هؤلاء المؤرخون أن نكبة البرامكة لا تستوجب البحث والتنقيب عن أسبابها، لأن مثل هذه التصفيات الجسدية هى نتيجة طبيعية للحكم الاستبدادى الذى يأبى على وزير أو كبير أن يشاركه السلطان.. وإن على الحاكم أن يحرص على قطع الرؤوس التى تعلو فوق المستوى المسموح به ـ أيا كانت الخدمات التى أداها هؤلاء الوزراء للدولة ـ وبناء على هذا القانون غير المكتوب فإن ما جرى للبرامكة ليس بدعة، وإنما سبقتها تصفيات بشعة منذ اليوم الأول لقيام الدولة العباسية.

حكايات الجوارى

في قصور الخلافة

طلاق زبيدة الذى حيّر أمير المؤمنين وكيف أنقذه مفتى أهل مصر؟



٤

■ أغرب يمين طلاق أوقعه هارون الرشيد على زوجته زبيدة

■ لماذا طلب الإمام الليث من هارون الرشيد أن يردد إنى أخاف مقام ربى؟

■ مساجلات بالرسائل .. بين الإمام مالك والإمام الليث عن أكل الرقاق!

كانت زبيدة زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد، هى أهم امرأة فى حياة هذا الخليفة العباسى الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، فى حياته وبعد مماته، بغرامياته مع الجوارى.

كانت زبيدة ابنة عمه جعفر، وأم ابنه الأمين.

كانت أحب النساء إليه، وأقربهن إلى قلبه، ولم تستطع الجوارى اللاتى امتلأ بهن قصر أمير المؤمنين، أن يؤثرن على تلك المكانة العالية التى تحتلها فى قلبه، أو يقللن من الدور الكبير الذى تقوم به فى حياته العامة والخاصة.

تزوج هارون الرشيد من زبيدة فى مطلع حياته، قبل أن يتولى الخلافة بخمس سنوات.

وكل الذين كتبوا سيرته يذكرون أنه كان عظيم الحب لها، والوجد بها، وإن حبه لها كان يفوق حبه للخلافة التى سيقت إليه دون أن يطلبها أو يسعى إليها.

ورغم أنه تزوج من خمس أخريات بعد أن تولى الخلافة، فقد بقيت زبيدة هى الزوجة الأثيرة لديه، على امتداد سنوات خلافته التى استمرت ثلاثة وعشرين سنة، بلغت فيها الدولة العباسية أزهى عصورها.

كان هارون الرشيد يميل إلى إيثار الدعة والرغبة فى

الاستمتاع بالحياة.

فعندما أراد أخوه الهادى أن يخلع عنه ولاية العهد وأن يجعلها لابنه، لم يهتم الفتى هارون الرشيد، وقال تلك العبارة التى يذكرها المؤرخون «أليس يترك لى الهنىء والمرىء وأعيش مع ابنة عمى زبيدة؟»

كان كل ما يهمه أن يستمتع بطيبات الحياة ممثلة فى « الهنىء والمرىء وابنة عمه زبيدة».

وهذا يوضح مدى حبه لزوجته وابنة عمه زبيدة، من قبل أن يتولى الخلافة.

وقد استمر هذا الحب بعد أن تولى الخلافة، وطوال فترة الخلافة.

●●●

أما حكاية طلاق زبيدة فهى من أغرب الحكايات التى تروى عن هذا الرجل الذى نسجت من حوله الأساطير.

والحكاية ليست قاصرة على زبيدة وزوجها أمير المؤمنين هارون الرشيد.

فهناك طرف ثالث هو الإمام الليث بن سعد، مفتى أهل مصر، وفقيهها، وإمامها العظيم قبل ١٢٤٠ سنة!

وهى توضح مدى تميز الإمام الليث، وفهمه السليم لكتاب الله حين يتصدى للتفسير، وتكشف عن دقته فى الاستنباط والاستدلال.

وحكاية طلاق زبيدة أوردها المؤرخ ابن تغرى فى كتابه النجوم الزاهرة.

تقول الحكاية أن هارون الرشيد كان قد أوقع يمين الطلاق على زوجته زبيدة فى ظروف غريبة، وبعبارات أشد غرابة!

ففي حديث بين أمير المؤمنين هارون الرشيد وزوجته زبيدة التي هي ابنة عمه، والتي كانت الحب الكبير في حياته، كما أوضحنا من قبل، قالت له زبيدة، ولعلها كانت تعاتبه على إسرافه على نفسه في حياته اللاهية: أنت لن تدخل الجنة (!)

فقال لها : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة (!)

وندم أمير المؤمنين على هذه العبارة التي صدرت منه.

وانتابته الحيرة.

هل مازالت زبيدة زوجة له؟ أم أنها طالق؟

وابتعد عنها .. ولم يعد يقربها!

وجمع الفقهاء يستفتيهم في أمر هذا اليمين الذي أوقعه على زوجته.. فاختلفوا..

وازدادت حيرته.

فكتب إلى البلدان يستحضر علماءها إليه.. كي يستفتيهم.

وجاء العلماء من مختلف بلدان العالم الإسلامي.. فلما اجتمعوا، جلس إليهم يسألهم.

فاختلفوا أيضا..

تكلموا جميعا ماعدا شيخا واحدا بقي صامتا.. لم يتكلم.

كان يجلس بعيدا.. في آخر الصفوف.

وكان هذا الشيخ هو الإمام الليث..مفتي أهل مصر.

فسأله هارون الرشيد.. لماذا لم تتكلم؟

فقال الإمام الليث: إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه.. تكلمت.

فطلب هارون الرشيد من الحاضرين أن ينصرفوا.. فانصرفوا.

وبقي هو والإمام الليث.

فقال الإمام الليث : يسمح لي أمير المؤمنين.. أن اقترب.

فسمح له هارون الرشيد..

فاقترب..

فقال الإمام الليث: اتكلم على الأمان.. يا أمير المؤمنين.

فقال هارون الرشيد: نعم.. تكلم.. ولك الأمان..

فطلب الإمام الليث مصحفا.

فاحضروه.

فأخذه وقدمه إلى هارون الرشيد.. وقال له.

ـ تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن.

فتصفحه هارون الرشيد حتى وصل إلى سورة الرحمن.

فقال الإمام الليث: اقرأ يا أمير المؤمنين.. فأخذ هارون الرشيد يقرأ.. إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾.

فقال الإمام الليث : امسك يا أمير المؤمنين.

فتوقف هارون الرشيد.

فقال الإمام الليث : قل يا أمير المؤمنين.. «واقسم بالله».

فسكت هارون الرشيد.. واشتد ذلك عليه.. وتردد.

فقال الإمام الليث: لقد اشترطنا يا أمير المؤمنين.. فاقسم بالله العظيم..

فاستجاب هارون الرشيد.. وأقسم بالله العظيم.

فقال الإمام الليث: قل يا أمير المؤمنين وأنت تردد القسم «إنى أخاف مقام ربى».

فقال هارون الرشيد وهو يردد القسم .. « إنى أخاف مقام ربى».

فابتسم الإمام الليث وقال: يا أمير المؤمنين.. لك جنتان.. وليست جنة واحدة!

وفرح هارون الرشيد.. وتهلل وجهه بالسرور.. واطمأن إلى أن زبيدة مازالت زوجته.. وليست طالقا.

وانطلقت الزغاريد فى القصر.

وقال هارون الرشيد للإمام الليث: لقد أحسنت.

وأمر بأن يكون له خراج الجيزة، أى كل ما يأتى منها.

وأن يكون أمره فوق أمر الولاة فى مصر.

وأن يسرى حكمه على القضاة.

وقبل الإمام الليث بذلك.

لكنه لم يقبل بأن تكون له «ولاية مصر» عندما عرضها عليه!

●●●

والإمام الليث . مفتى أهل مصر، الذى أنقذ هارون الرشيد من حيرته، وأبقى له زوجته وابنة عمه زبيدة.. هو فقيه مصر العظيم الذى قال عنه الإمام الشافعى: كان أفقه من الإمام مالك، لكن قومه أضاعوه أو ضيعوه!

والمقصود بالقوم هنا هم المصريون الذين لم يهتموا بالحفاظ على تراث الإمام الليث والعمل على نشره فى مصر.

ورحلة الإمام الليث تستحق أن تروى.

ولد الإمام الليث بن سعد فى نهاية القرن الأول للهجرة سنة ٩٤ هجرية.. وكان ميلاده فى قرية قلقشنده التى تقع إلي الجنوب من مدينة طوخ، بالقليوبية، وهى نفس القرية التى ينتسب إليها المؤرخ القلقشندى صاحب كتاب «صبح الأعشى».

حفظ الإمام الليث القرآن وهو صغير، ثم سعى لتعلم علوم الحديث والفقه، وسافر إلى الحجاز، وقابل الإمام مالك بالمدينة وصار من أصحابه.

وروى الحديث عن نافع مولى عمر بن الخطاب.

ثم رحل إلى العراق، وقرأ فقه العراقيين، ولم يرق له اشتغالهم بتفريع المسائل وفرض الفروض ليجدوا لها حلا.

والتقى بالإمام أبى حنيفة، ولم يعجبه قوله، وإن كان قد أعجبه حضور بديهته وسرعة جوابه.

ومنهج الإمام الليث يتقارب مع منهج الإمام مالك.

كان الإمام مالك فقيها.. صاحب سنة وأثر.. وإماما مجتهدا.

وكذلك كان الإمام الليث.

والذى يتابع فقه البلدان يجد أن كل بلد قد غلب عليه فقه فقهائه.

ففى العراق كان فقه أبى حنيفة.

وفى المدينة كان فقه مالك.

وفى الشام كان الأوزاعى.

وكان من المنطقى أن يكون فى مصر فقه الليث.

لكن الغلبة كانت لفقه مالك، فقد اهتم أعلام المذهب المالكى فى مصر بمذهب مالك وعملوا على نشره بين المصريين.

أما الإمام الليث فلم يقدر له من أصحابه وتلاميذه من يكتب مذهبه ويدونه ويعمل على نشره فضاع - كما قال الشافعى! أضاعه تلاميذه وأصحابه أو ضيعوه!

ويتوقف المؤرخون طويلا عند ثرائه وزهده وكرمه.. ويقولون ان الإمام الليث كان دخله كل سنة يصل إلى حوالى مائة ألف دينار، كان ينفقها جميعها فى أوجه الخير والبر بالفقراء.. ولذلك لم تجب عليه الزكاة قط.. ففى نهاية العام لا يكون قد تبقى لديه شىء.

كان الإمام الليث يقيم موائد الرحمن فى رمضان.

وكان يطعم الناس الهريسة بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء.. وباللوز والسكر فى الصيف.

ولم يكن يرد محتاجا جاء إليه يطلب المساعدة.. بل كان يعطى

ويجزل العطاء سواء من المال أو الطعام أو الثياب.

ومن القصص التى تروى عن كرمه أن امرأة جاءته تطلب رطلا من العسل هى فى حاجة إليه، فقال لها اذهبى إلى الوكيل فاطلبى منه مائة رطل.. فذهبت المرأة إلى الوكيل فعرف منها أنها جاءت تطلب رطلا واحدا هى فى حاجة إليه.. فرد عليه الإمام: لقد سألتنا المرأة علي قدرها.. ونحن نعطيها على قدرنا.. فاذهب وأعطها مائة رطل من العسل.

●●●

وكان الإمام الليث يساعد صديقه الإمام مالك.. الذى كان يعانى من الفقر.. فكان يرسل إليه كل عام مائة دينار.

وحدث أن كتب الإمام مالك من الحجاز إلى صديقه الإمام الليث فى مصر يقول له إن عليه دينا ويريد أن يسدده.. فبعث إليه الإمام الليث بخمسمائة دينار.

وكتب الإمام مالك مرة أخرى يقول إنه يريد أن يزوج ابنته.. فبعث إليه الإمام الليث بقافلة تضم ثلاثين جملا محملة بالهدايا.

وقيل إن الإمام الليث عندما ذهب للحج قدم له الإمام مالك طبقا به «رطب» أى بلح، فأكله ورد الطبق إليه وبه ألف دينار!

وكانت هناك حوارات ومساجلات طريفة بالرسائل بين الإمام مالك والإمام الليث.

فقد كتب الإمام مالك من المدينة إلى الإمام الليث فى مصر يقول له:

- بلغنى أنك تأكل الرقاق.. وتلبس الرقاق «بكسر الراء».. وتمشى فى الأسواق؟

فكتب إليه الإمام الليث يقول:

- ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من

الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وحديث الفقهاء عن الإمام الليث يوضح مكانته ومنزلته العالية.

قال الإمام أحمد بن حنبل: إن الإمام الليث كثير العلم صحيح الحديث.

وقال الفقيه ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال ابن حيان: كان الليث من سادات أهل زمانه فقها وعلما وحفظا وفضلا وكرما.

وقال أبو على الخليلى: كان الليث إمام وقته بلا مدافعة.

أما الإمام الشافعى الذى قال عن الإمام الليث بأنه كان أفقه من مالك، فقد قال عنه أيضا: لقد حاز أربع خصال لم يكملهن عالم، وهى: العلم والعمل والزهد والمكارم.

●●●

ويذكر المؤرخون والباحثون ان الإمام الليث فى تفسيره للقرآن لا يقف عند اللفظ، بل يتعداه إلى معنى الآية وفحواها، ويهتم بروح الآية ومغزاها وحكمتها، وكان يميل إلى المعنى الظاهر للآية وهو مايفهمه الإنسان لأول وهلة.

وكان مؤرخا، وخصوصا فيما يتعلق بفتح مصر وتاريخها الإسلامى إلى عهده.

وكان فقيها وإماما يقتدى به، وصاحب فكر ومنهج وأستاذا رائدا قبل أن يكون الشافعى إماما.

وقد سخّر الليث فقهه لتوجيه وتنبيه القضاة إلي شرع الله، فلم يكن فقهه يدور فى بطون الكتب وبين جدران المسجد فحسب، بل كان يوجه الخلفاء والأمراء وينصف المظلومين، وكان من جلال القدر ورفعة المنزلة بحيث يلجأ إلى رأيه ولاة مصر وقضاتها.

●●●

كانت وفاة الإمام الليث فى ليلة منتصف شهر شعبان سنة ١٧٥ هجرية. وكانت الليلة هى ليلة الجمعة، وخرجت مصر لتكون فى وداع الإمام الليث.. وصار الناس يعزى بعضهم بعضا.

وكانت المقبرة التى دفن فيها كالمصطبة، وكتبوا عليها: الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد مفتى أهل مصر.

ومضت السنين وهى على هذا الحال.

وجاء أحد التجار واسمه أبو زيد المصرى وشرع فى بناء قبة فوق المقبرة، ثم أكملها أهل الخير من محبى الإمام الليث.

وقبر الإمام الليث هو على مسافة دقائق من قبر الإمام الشافعي..

وفيما مضى كان قراء القرآن الكريم يجتمعون كل يوم جمعة بعد الظهر بمسجد الإمام الليث لتلاوة القرآن الكريم تلاوة مجودة يختتمونه فيها عند السحر.. وقد ظلت هذه العادة مستمرة إلى ماقبل خمسين سنة.

وكان ملوك مصر يقصدون قبر الإمامين الشافعى والليث للزيارة والتبرك، وكثيرا ما كانت تقرأ فيهما ختمات القرآن وتوزع الصدقات تقربا إلى الله تعالى.

ويبدو أن الإمام الشافعى كان يقرأ المستقبل عندما وقف على قبر الإمام الليث حين جاء مصر قبل ١٢٠٠ سنة وقال كلمته الشهيرة: كان أفقه من مالك ولكن قومه أضاعوه، أى لم يهتموا بتراثه الفقهى.

فهناك مثل قديم يقول: لا يفتى ومالك فى المدينة.. والليث فى مصر.

أى لا يفتى فى المدينة المنورة ومالك فيها..

ولا يفتى فى مصر والليث فيها.

ولكننا مع نسياننا للإمام الليث لم نعد نتذكر المثل كاملا..

واكتفينا بالقول: لا يفتى ومالك فى المدينة!

زوجة واحدة.. وألف جارية

فى قصر الخليفة الفاطمى العزيز بالله



٥

■ قصر الأساطير..
الذى كان يضم ٤ آلاف حجرة

■ ٢٠ جارية لتعطير ملابس الخليفة برائحة الزهور!

■ سباق على شراء الجوارى المغاربة.. والجوارى الأتراك!

كان الخليفة العزيز بالله هو ثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر.

وكان عصره هو العصر الذهبى للدولة الفاطمية، ويجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله، ويعتبرون عصره من أزهى العصورالتى شهدتها مصر خاصة، والعالم العربى عامة.. وهم يمتدحونه فى أخلاقه، وحكمته وسياسته، وتسامحه، ويرون أنه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظام.

كان اسم الخليفة العزيز بالله يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد، من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا، وفى عهده صارت الدولة الفاطمية أعظم الدول الإسلامية، وموضع احترام وهيبة من جميع دول العالم، فى الشرق وفى أوروبا، كما أصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية.

وقد أضفى المؤرخون على العزيز بالله كثيرا من الصفات الشخصية الحميدة، وقالوا إنه اشتهر بالذكاء، والعقل المستنير، وحب العلم والأدب، وإنه كان يجيد عدة لغات ويشجع العلماء والأدباء، كما كان شاعرا مجيدا، وتميز بالتسامح والكرم والشجاعة، وكان مثالا للتقوى والورع.

وقالوا إنه لم يعرف عنه أنه شرب الخمر، أو مارس ما كان

يمارسه بعض الخلفاء من عبث أو مجون، بل انصرف إلى شئون دولته وجمع حوله طائفة من العلماء والفقهاء والشعراء.

وقالوا إن الخليفة العزيز بالله قد سار على سنة أبيه الخليفة المعز لدين الله فى الاكتفاء بزوجة واحدة وعدم تعدد الزوجات.

وإنه - أى الخلفية العزيز بالله - قد تزوج بسيدة رومية مسيحية على المذهب الملكانى وهو مذهب كنيسة القسطنطينية فولدت له ابنة الحاكم بأمر الله وابنته ست الملك.

وقالوا إن هذه الزوجة الرومية المسيحية كان لها منزلة كبيرة لدى الخليفة العزيز بالله، حتى إنه عين أخويها بطريركين، أحدهما فى الإسكندرية والآخر فى بيت المقدس.

●●●

لكن الخليفة العزيز بالله الذى اكتفى بزوجة واحدة، كان فى قصره أكثر من ألف جارية!

هكذا قال المؤرخون.

فالرحالة ناصر خسرو يذكر فى وصفه لقصر الخليفة العزيز بالله، وهو القصر الشرقى الكبير، إنه كان فى وسط القاهرة، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها، وكان يحرسه فى الليل خمسمائة فارس من الفرسان، وخمسمائة حارس من الرجالة، وكانت أسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة، وكان بالقصر ألوف من الخدم والنساء والجوارى.

ويذكر كتاب «المختصر فى أخبار البشر» لمؤلفه أبو الفدا إن قصر الخليفة العزيز بالله حفل بكثير من الرقيق والجوارى، مثلما كان متبعا فى قصور الأخشيديين والفاطميين، وأن النخاسين (تجار الرقيق) جلبوا إلى مصر كثيرا من الغلمان والجوارى، من

النوبة والحبشة والسودان والتركستان وغيرها، وساعدهم على ذلك ما كان فيه الخلفاء من البذخ والثروة، فعهد إليهم الخليفة بخدمة قصره وحراسته وأسند إليهم أعلى المناصب وجعلهم من خاصته وحاشيته.. وخصص الخليفة عددا من الخصيان من الرقيق لخدمة حريم القصور أو الخليفة نفسه، فكانوا يحفون بالخليفة مطلقين البخور على جانبى الطريق عند خروجه.

ويذكر كتاب نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين، إنه إلى جانب المحظيات من الجوارى، كانت هناك الراقصات والمغنيات، وقبل أن يتولى العزيز بالله الخلافة، كان إذا زاد والده المعز لدين الله من جوارى المغاربة فى القصر، زاد هو من جوارى الأتراك.

ويذكر المؤرخ المقريزى فى سياق حديثه عن «دار الكسوة» الملحقة بقصر الخليفة العزيز بالله ان القماش كان يحمل إلى دار الكسوة من تنيس ودمياط والإسكندرية، ويقوم بتفصيله «صاحب المقص» وهو رئيس الخياطين، يساعده عدد كبير من العمال، فيعدون ملابس الخليفة وما يحتاجه من خلع، ثم ينقل ما يتم إعداده إلى «خزانة الكسوة» التى تتولاها امرأة تسمى «زين الخزان» وتساعدها ثلاثون جارية.. وكان الخليفة يغير ثيابه فى هذه الخزانة، وكانت هذه المرأة تقوم بتعطير ثيابه، وكان يحمل إليها فى كل يوم كثير من الأزهار لتقوم بهذه المهمة.

وقال المقريزى إن خزانة الكسوات كانت تحتوى على جميع أنواع الثياب المصنوعة فى دار الطراز، أو المجلوبة من البلاد الإسلامية، فتفصل فيها كسوة الشتاء والصيف لرجال القصر ونسائهم وأولادهم وخدمهم، كما تصنع فيها خلع الأمراء

والوزراء وكبار الموظفين، من الثياب والعمائم المذهبة، وقد بلغ ثمن العمامة خمسمائة دينار (!)

●●●

ونعود إلى شخصية الخليفة العزيز بالله الذى اكتفى بزوجة واحدة، وملأ القصر بالجوارى على عادة ذلك الزمان.

وصف المؤرخ ابن الأثير الخليفة العزيز بالله فقال إنه كان أسمر اللون، طويلا، أصهب الشعر، أزرق العينين كبيرهما، عريض المنكبين، عارفا بالخيل، خبيرا بالجواهر.

وكانت له هواياته، فقد شغف بجوارح الطير الغريبة، ولذلك جلب الطيور والحيوانات من السودان، وكان مغرما بالصيد، خاصة صيد السباع، كما كان شغوفا بجلب الأسماك الجميلة من البحر.

ويعلق المؤرخ لينبول على هوايات الخليفة العزيز بالله فيقول إنه فى الوقت نفسه كان يشبه أباه المعز لدين الله فى حبه للسياسة، وإدارة شئون البلاد، ولم يكن لما عرف عنه من حب للترف أو البذخ أثر فى الحد من مقدرته السياسية والإدارية، فقد بنى أسطولا ليحارب الامبراطور باسيل، كما أنه شهد بنفسه حملة موفقة على سوريا التى لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين، وكان عهده عهد سلام دائم فى مصر، وكان أسمه يذكر فى صلاة الجمعة فى المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلسى.

ويعتبر عصر العزيز بالله عصر تسامح دينى، فقد كان حريصا على اكتساب محبة رعاياه من غير المسلمين، وهى السياسة التى وضع بذورها أبوه المعز لدين الله حين احتفل بالأعياد غير الإسلامية مثل عيد الميلاد وعيد الغطاس، كما احتفل بالأعياد المصرية القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل، كما اتسع تسامح

العزيز بالله فشمل اليهود فى مصر أيضا.

وكان العزيز بالله يرتدى فى قصره ثيابا خاصة تتميز بأن أكمامها قصيرة، وكان يلبس قفطانا وجبة وقباء، ويتشح بالعباءة ويلبس قلنسوة مزينة بجوهرة غالية.

●●●

تولى العزيز بالله الخلافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره، بعد وفاة أبيه المعز لدين الله، وكان ذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هجرية.

وكان الخليفة العزيز بالله مثل سائر الخلفاء الفاطميين، يميل إلى مظاهر العظمة والأبهة، وانعكست هذه الميول على بلاطه وحاشيته.

كانت الحاشية تتألف من عدد كبير من الموظفين، فهناك حامل المظلة، وهو الذى يحمل المظلة فوق رأس الخليفة فى المجالس والمواكب، ويتولى هذا المنصب أمير جليل.

وهناك حامل رمح الخليفة، وهو رمح صغير يحمله موظف فى المواكب.

وهناك حملة السلاح أو الركابية وصبيانهم، وعددهم يزيد على ألف رجل، متقلدين السيوف، يسيرون على يمين ويسار الخليفة.

ومن أبرز رجال حاشية الخليفة « الأساتذة المحنكون» وقد سموا بالمحنكين لأنهم كانوا يدورون العمامة على أحناكهم (أى على أفواههم) كما يفعل المغاربة. وهؤلاء الأساتذة المحنكون هم الخصيان المسمون (الطواشية) وكانوا أقرب رجال الحاشية إلى الخليفة، وكان إذا تولى أحدهم منصبه بعث الخليفة إليه بدلة كاملة من ثيابه ومنديلا وفرسا وسيفا. وكان عدد الأساتذة المحنكين يزيد على الألف.

وهناك أيضا «صبيان الحجر»، وكانوا شبانا يزيد عددهم على خمسة آلاف، ويتميزون بالشهامة وكرم الأخلاق، وكان الخليفة يعهد إليهم ببعض المهام.

وكان للخليفة طبيبه الخاص واسمه أبو الفتح سهل بن معشر، وهو مسيحى، وكان يجلس على باب الخليفة كل يوم مستعدا لمعالجته هو وأسرته، ويعاونه أربعة أطباء.

وكان من رجال قصر الخليفة أيضا عدد من المقرئين ويسمون «قراء الحضرة» وكانوا يزيدون على عشرة، يقرأون القرآن الكريم فى حضرة الخليفة فى مجالسه وفى مختلف المناسبات وكانوا يأتون فى قراءاتهم بآيات مناسبة للحال، فتقع موقع الاستحسان عند الخليفة والحاضرين.

وضمن الحاشية أيضا يذكر المؤرخون الرقيق والجوارى ويقولون أن قصر الخليفة العزيز بالله كان يحفل بالكثير من الرقيق والجوارى، مثلما كان متبعا فى قصور الأخشيديين والفاطميين، وقد سبقت الإشارة إلى الرقيق والجوارى.

● ● ●

موكب صلاة العيد .. وموكب وفاء النيل

● وفى الحديث عن مواكب الخليفة العزيز بالله، يقدم لنا المؤرخ القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» وصفا جميلا للصورة التى كانت عليها تلك المواكب فى شوارع القاهرة.. يقول القلقشندى: كان الموكب يتقدم وحوله الأساتذة والأمراء المطوقون ورجالات الدولة ركبانا ومشاة على حسب مراتبهم وحامل الدواة، وكانت هذه الدواة مصنوعة من الذهب ومحلاة بالمرجان، تلف فى منديل من الحرير الأبيض، ويحملها أحد رجال

الخليفة. وحول الخليفة حامل السيف، وحامل الرمح، وهو رمح محلى بالذهب واللؤلؤ، وحامل الدرقة المنسوبة إلى حمزة عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهى درقة كبيرة محلاة بالذهب والحرير. ومن وراء الخليفة يسير العساكر وبلغ عدد الفرسان أكثر من ثلاثة آلاف فارس.

وكانت توضع فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى الموكب قطعة ياقوت أحمر على شكل هلال تسمى (الحافر) زنتها أحد عشر مثقالا.. تحاط على خرقة وبدائرها قضيب زمرد.

وكان للخليفة الفاطمى الرايات البيضاء، وعليها أهلة من ذهب فى كل منها صور سبع من الديباج الأحمر، ومنسوج على الرايات بعض الآيات القرآنية والعبارات الدينية مثل ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾.

وإذا بدأ سير الموكب ضرب رجل ببوق من الذهب يقال له (الغريبة) وهو مخالف لصوت باقى الأبواق، فتضرب البوقات الأخرى فى الموكب، وتنشر الألوية.

أما المظلة فكانت قبة على هيئة خيمة على رأس عمود وكانت لها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، وكان حاملها من أكبر الأمراء. وكان لونها يشبه لون ثياب الخليفة، فمثلا فى صلاة العيد الأضحى تكون مظلة الخليفة حمراء تبعا لثوبه الأحمر الموشح وبيضاء فى صلاة عيد الفطر. لارتدائه البياض فى هذه المناسبة. وكانت تتخذ المظلة من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر.

يسير الخليفة فى الموكب وصاحب المظلة على يساره مجتهدا ألا يزول ظلها عن الخليفة، وفى المواكب المختصرة كان يخرج الخليفة بدون مظلة وكانت الطبول تقرع هى والصنوج طوال سير

الموكب، وتحمل النقارات على عشرين بغلا.

● وكان موكب صلاة الجمعة من أبرز مواكب الخليفة العزيز بالله فكان يركب فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى الجوامع .

وقبل وصول الخليفة بقليل كان قاضى القضاة يقف وبيده مبخرة، فيبخر المنبر والقبة التى كان يقف الخليفة تحتها وقت إلقاء الخطبة، أما الخطبة فقد كان يصوغها أحد كتاب البلاط فى ديوان الإنشاء، وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق، ويحمل قضيب الملك بيده ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف، ويتبع هؤلاء جمهور من الناس.

وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن الكريم حتى يصل إلى قاعة الخطابة، وهى قاعة استقباله الخاصة، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حراس الخليفة ويظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الآذان.

وحينئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : «السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله». فيخرج الخليفة وحوله الوزير وجماعة من الحرس المدججين بالسلاح فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر ـ أما الخليفة فيستمر حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر. ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة فإذا أومأ إليه، صعد فقبل يدى مولاه ورجليه، وزر السترين عليه، وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر.

وبعد الآذان يقدم قاضى القضاء وصاحب بيت المال، فيتقدم الأول ويحل الستر ويبخر المكان، ثم يغادران القاعة ويقبلان

الدرج عند نزولهما.. وكانت الخطبة التى يلقيها الخليفة قصيرة.

وبعد انتهاء الصلاة يخلو الجامع من الناس ويغادر الخليفة المسجد .

● ومن أبهى مواكب الخليفة العزيز بالله مركبه فى الاحتفال بوفاء النيل. فكان الخليفة يخرج يحيط به آلاف من الفرسان يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة. ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من جند الخليفة.

ويسير الجند فى صفوف منتظمة فصيلة بعد فصيلة، ويتبعهم عشرون ألفا من البربر من أبناء قبيلة كتامة وخمسة عشر ألفا من المغاربة، وعشرون ألفا من المصامدة وهم أيضا من بربر شمال افريقية. ويتبعهم عشرة آلاف من الأتراك ومثلهم من الفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ثم خمسة عشر ألفا من بدو الحجاز وثلاثون ألفا من السودان، ثم يتبعهم الموظفون على اختلاف مراتبهم، ثم الشعراء والعلماء والأمراء.

وفى آخر هذا الموكب يسير الخليفة العزيز بالله، وحوله حرسه الخاص، وإلى جانبه أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ويحف به الخصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق. حتى إذا وصل إلى الفسطاط المقام عند فم الخليج سجد له الناس احتراما وإجلالا.

وفى هذا السرادق يوضع للخليفة حشية عظيمة يجلس عليها ويوضع للوزير كرسى ويبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن الكريم، ثم ينشد الشعراء قصائدهم.

عن القصر الشرقى الشهير.. قصر الأساطير؟

● كان القصر الشرقى الكبير الشهير هو مسكن الخليفة، ومركز الحكم، وكان يضم دواوين الحكومة ودور السلاح، وكثيرا من الممرات السرية.

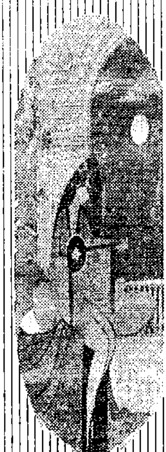
وقد اشتهر القصر الشرقى الكبير بالفخامة، واكتسب شهرة واسعة، وقيل إنه كان يضم أربعة آلاف حجرة.

وقد أقام الخليفة العزيز بالله فى القصر الشرقى الكبير طوال حياة أبيه المعز لدين الله فى مصر، ثم شيد قصرا آخر وسماه القصر الغربى الصغير، وأصبح يطلق على القصرين القصور الزاهرة. وكان بين هذين القصرين فضاء يسع عشرة آلاف جندى، وقد أطلق على هذا الفضاء فيما بعد «بين القصرين» وهى المنطقة التى كتب عنها نجيب محفوظ رائعته الأدبية «بين القصرين».

وقيل إن الذى ساعد الخليفة العزيز بالله على إضفاء العظمة والأبهة على قصوره ما خلفه له أبوه المعز لدين الله من أموال طائلة، وهى الأموال التى قال عنها المؤرخ المقريزى: إن المعز لدين الله حمل أمواله من المغرب إلى مصر على ألف بعير، وسبك الدنانير على شكل الطواحين، وجعل على كل جمل قطعتين، واحتشد الجند والناس يرون هذه الأموال الطائلة ويتعجبون من أمرها.

وقد تحدث المؤرخون طويلا عن القصر الشرقى الكبير الشهير، وقالوا إن هذا القصر استمر دارا للخلفاء الفاطميين منذ أقام فيه المعز لدين الله الفاطمى، وإنه أصبح أشبه بمستعمرة كبيرة، حتى إن صلاح الدين الأيوبى لما قضى على الدولة الفاطمية فى أواخر القرن السادس الهجرى واستولى على هذا القصر، وجد فيه أكثر من اثنى عشر ألف امرأة!

جوارى الأميرة «ست الملك» التى اتهموها بقتل الحاكم بأمر الله



٦

■ لعبة السياسة بين «ست الملك» وأخيها الحاكم بأمر الله

■ لغز اختفاء الحاكم فى جبل المقطم قبل ألف عام

■ الحاكم الذى أقام دار الحكمة فى مصر.. ومنع الناس من تقبيل يديه.. لم يمنع الناس من أكل الملوخية

تبقى الأميرة «ست الملك» هى أهم وأبرز شخصية نسائية فى العصر الفاطمى كله.

والأميرة « ست الملك » هى ابنة الخليفة العزيز بالله، وأخت الخليفة الحاكم بأمر الله، الذى تولى الخلافة وصار أميرا للمؤمنين وهو صبى فى الحادية عشرة من عمره!

وهى دون غيرها من أميرات وملكات العصر الفاطمى، التى انشغلت بأمور السياسة والحكم.

ولذلك توقف المؤرخون عندها طويلا، وعند دورها فى لعبة السياسة والحكم.

وبعيدا عن هذه اللعبة، لعبة السياسة والحكم، لم يذكروا شيئا فى حياتها وبعد مماتها سوى الجوارى.. والجرار المملوءة بالمسك!

وتذكر المراجع التاريخية أن أمها كانت سيدة مسيحية رومية تزوجها العزيز بالله فولدت له ابنته ست الملك فى بلاد المغرب سنة ٣٥٩ هجرية، أما أخوها الحاكم بأمر الله فقد ولد بقصر الخلافة بالقاهرة سنة ٣٧٥ هجرية، أى أنها كانت تكبر أخوها بنحو خمسة عشر عاما.

وعندما توفى أبوها الخليفة العزيز بالله كان عمرها ستة

وعشرين عاما، وعمر أخيها الحاكم بأمر الله أحد عشر عاما وشهور.

كانت للأميرة ست الملك منزلة كبيرة عند أبيها الخليفة العزيز بالله، وعرف عنها ما كانت تتحلى به من الحزم والعقل وقوة العزيمة والتبصر بالأمور.. وكان والدها يحبها ويستمع إلى نصائحها ورأيها فى كثير من الشئون، وكذلك اشتهرت بالتسامح الدينى فى معاملة أهل الذمة.

وقد أهلتها هذه الصفات، منذ البداية، لتلعب دورا كبيرا فى سياسة مصر، فى عهد أخيها الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر لدين الله.

●●●

فى مدينة بلبيس توفى أبوها الخليفة العزيز بالله، وكان قد خرج على رأس الجيش الفاطمي لقتال القرامطة، وعندما وصل إلى بلبيس اشتد عليه المرض. وأدرك أن نهايته قد حانت، استدعى إليه القاضى محمد بن النعمان المغربى وأبا محمد الحسن بن عمار زعيم كتامه واستشارهما فى تولية ابنه الخلافة وهو الحاكم بأمر الله.

وكان الحاكم بأمر الله، فى ذلك الوقت صبيا صغيرا عمره أحد عشر عاما وشهور!

فى تلك الليلة، ليلة وفاة الخليفة العزيز بالله فى بلبيس، كانت الأميرة ست الملك هناك. وما كادت تتأكد من وفاة أبيها، حتى سارعت بالسفر من بلبيس إلى القاهرة على رأس طائفة من الجند، فوصلتها عند منتصف الليل، وذلك لتأمين العاصمة.

وفى اليوم التالى وصل الصبى الصغير الحاكم بأمر الله يصحب جثة أبيه الذى دفن باحدى حجرات القصر الشرقى الكبير.

وهكذا حافظت الأميـرة ست الملك على عرش الخلافة لأخـيها الصغير، وكانت احدى دعامات حكمه.

فقـد تولت هى تدبير الأمـور والقيام بأعـباء الحكم، يسـاعدها برجوان الصقلى الذى كان يتولى الوصاية على الخليفة الصغير.

واستـمر الأمـر كذلك حـتى شب الحاكم بأمـر الله عن الطوق، وبلغ الخامسة عشرة، واخذ يتطلع إلى السلطة . وأن تكون الأمور بيديه.

وبدأ بنبـذ وصـاية برجـوان الصـقلى، ثم قـتله لازاحـتـه من الطريق.

واستـدار إلى اختـه الأميـرة ست الملك، وأخـذ يتحرش بـها، ويضيق عليها، ويقول فى حقها لعـزوفها عن الزواج وعدم رغبتها فيه.

كان جـوهر الخلاف بين الحاكم بأمـر الله وأخته الأمـيرة ست الملك هو رغبة الحاكم بأمر الله فى أن تكون السلطة كلها فى يديه، وتعويض ما فاته منها عندما كان صبيا تحت الوصاية.

وازداد احتراز الأمـيرة ست الملك من أخيها الحاكم وتخـوفها منه، كلما رأته يسرف فى قتل كبار رجال الدولة الواحد بعد الآخر نتيجـة لاضطراب الأحوال السياسية والصـراعات التى ظهرت مع اصراره على أن تكون له السلطة.

وزادت الجفوة بين الحاكم بأمـر الله وأخته الأميرة ست الملك، فاعتكفت فى دارها بالقـصر طلبا للسلامة، وقد ضـمت إليها طفلا صغيرا هو ابن الحاكم بأمر الله وأمـه خوفا عليه من أبيه. وراحت ترقب الاحداث، وما يجرى من بعيد.

●●●

ونتوقف قليلا عند شـخصية الحاكم بأمر الله، تلك الشـخصية

التاريخية التى أثارت الجدل من حولها.

قالوا أنه ادعى الألوهية!

وقالوا انه منع الناس من أكل الملوخية!

ونسبوا إليه الكثير من الأفعال والقرارات المضحكة التى تصفه بالسذاجة والعبط!

لكن التاريخ الموثوق يقول أن كل ذلك ليس صحيحا.. وأنه تعرض لحملة تشويه واسعة على يد الأيوبيين، وأن هذه الحملة طالت كل خلفاء الدولة الفاطمية.

فالحاكم بأمر الله هو الذى أقام دار الحكمة بمصر، وهو الذى منع الناس من تقبيل يده، وتقبيل الأرض بين يديه، ودق الطبول له من حول القصر.

يذكر الباحثون المدققون أن الكثير من تصرفات الحاكم بأمر الله قد شوهت بقصد النيل من هذا الخليفة الذى أثبتت سياسته أنه كان خصما قويا للعباسيين بصفة خاصة ولمذهبهم بصفة عامة، وأن بعض قوانينه التى تبدو شاذة قد اقتضتها ضرورات اجتماعية واقتصادية، وأن من اللازم أن نمحص ما ورد من أخبار الحاكم ونناقشها قبل الحكم عليها.

ففى سنة ٣٩٥ هجرية ١٠٠٥ ميلادية أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة فى مصر، والحق بها مكتبة ضخمة سميت «دار العلم» وكان القارىء الذى يدخلها يحصل على ما يلزمه من الورق والمداد والأقلام دون مقابل.

وقد امتدت الأعمال التعميرية للحاكم بأمر الله، إلى الجامع الأزهر، وخصه بعنايته ورعايته.

وقد وصلتنا نسخة من أول وقفية معروفة فى تاريخ الأزهر، وهى باسم هذا الخليفة، وترجع إلى سنة ٤٠٠ هجرية ـ ١٠٠٩

ميلادية، ويتضح من هذه الوقفية أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد عنى عناية فائقة بالجامع الأزهر، وحرص على أن يوفر له ولمن يؤمه من المصلين والعلماء الرعاية اللازمة، فقد خصص المرتبات والأرزاق للخطيب والائمة والمؤذنين والخدم وغيرهم ممن يقومون بالعمل فيه، وحرص على أن يزوده باستمرار بما يلزمه من الفرش والأدوات ووسائل الصيانة والاضاءة والوضوء، ولم يغفل شيئا مهما كبر أو صغر.

والحاكم بأمر الله هو الذى أهدى الأزهر فى سنة ٤٠٣ هجرية ـ ١٠١٢ ميلادية شمعدانا كبيرا تكلف نحو مائة الف دينار، وكان هذا الشمعدان من الضخامة بحيث لم يتمكن العمال من ادخاله إلا بعد توسيع أحد أبواب الأزهر، وتكفل الحاكم بأمر الله بعمل الباب الجديد، وهو الباب الذى يحمل اسمه والذى نقلته مصلحة الآثار بعد ذلك إلى متحف الفن الإسلامى باعتباره من التحف الأثرية.

وهناك الجامع الذى ينسب إلى الحاكم بأمر الله، والذى يحمل اسمه. جامع الحاكم بأمر الله، الذى يتميز بالعظمة والجلال.

وهذا الجامع يعتبر من أهم الجوامع التى أنشئت فى مصر الفاطمية، وهو تحفة فريدة بما يمتاز به من خصائص معمارية وفنية لا يوجد لها مثيل فى العمائر الإسلامية الأخرى.

وهو يعد ثانى المساجد فى القاهرة اتساعا، إذ تبلغ مساحته حوالى ثلاثة أفدنة ونصف الفدان، وبوابة الجامع تعتبر أقدم بوابة قائمة فى عمائر مصر الإسلامية الأثرية، وأيضا أول بوابة من نوعها فى مصر.

ويمتاز الجامع أيضا بمئذنتيه الفريدتين، وبقبابه الثلاث، وبوفرة الكتابات والزخارف.

ويذكر المؤرخ المقريزى أن الذى وضع أساس هذا الجامع هو

الخليفة العزيز بالله، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله.

ويذكر المؤرخون أيضا أن أول صلاة بالجامع كانت يوم الجمعة الذى يوافق السادس من شهر رمضان عام ٤٠٥ هجرية. وصلى فيه الخليفة الحاكم بأمر الله، بالناس صلاة الجمعة.

وفى ليلة افتتاح الجامع، نادوا على الناس من المآذن أن يقضوا الليل سيرا على الأقدام ما بين الجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله. وأضيئت القناديل فى الجامعين طوال الليل، وكان ذلك ابتهاجا باكتمال بناء الجامع الجديد.

وصار الجامع منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، مركزا علميا يجلس فيه الفقهاء، ويقصده الوافدون من طلاب العلم والمعرفة.

وعلى امتداد العصور، بقى جامع الحاكم بأمر الله موضوع رعاية وعناية واهتمام كل الحكام.

وعندما تدهورت حالته فى السنوات الأخيرة، جاء انقاذه على يد «طائفة البهرة» وسلطانها محمد برهان الدين.

وطائفة البهرة ترتبط بصلات دينية وثيقة بالفاطميين منذ عصور قديمة، وتضع الحاكم بأمر الله فى مكانة جليلة فى معتقداتها الدينية.

● ● ●

ويذكر المؤرخون أن مصر تمتعت فى عهد الحاكم بأمر الله برخاء اقتصادى أدى إلى ترف ورفاهية، وأدى ذلك بالتالى إلى الدعة والتراخى ونوع من الفوضى الاجتماعية، الأمر الذى رأى الحاكم بأمر الله أن يقضى على هذه الفوضى ويقر الآداب العامة، وأن يضع حداً لشرب الخمر، فمنع استيراد الزبيب أو بيعه، كما أمر كل فرد بألاّ يشترى أكثر من أربعة أرطال عنب فى كل مرة، وأمر باتلاف أشجار الكروم.

وحرصا على الثروة السمكية أمر الحاكم ألاّ يصطاد الصيادون سمكا بغير قشر، كما منع ذبح الأبقار إلا فى عيد الأضحى مدفوعا فى ذلك بالرغبة فى تنمية الثروة الحيوانية.

ويجمع المؤرخون المدققون على أن الحاكم بأمر الله كان يميل إلى التقشف والزهد فى حياته العامة والخاصة، وأنه منع الناس من ذكر عبارة « سيدنا ومولانا» فى المكاتبات الواردة إليه، ونهى عن اقامة الزينات فى طريقه، وضرب الطبول والأبواق حول القصر الكبير، واهتم بالقضاء، وحارب الرشوة، وطارد العابثين بالأمن.

أما حكاية فتح المحلات ليلا، أو منع السيدات من الخروج ليلا، فقد كان ذلك بسبب انتشار السرقات فى الليل، وتكرار الاعتداءات على النساء.

●●●

ونأتى للحدث الكبير الذى أثار حفيظة الأميرة ست الملك وهو اقدام الحاكم بأمر الله على جعل ولاية العهد إلى ابن عمه عبدالرحيم بن الياس وليس لابنه الصبى أبو الحسن الذى كان يعيش مع الأميرة ست الملك.

ولتأكيد هذه الخطوة، خصص الحاكم بأمر الله لولى العهد الذى اختاره مكانا للاقامة فى القصر، وفوض إليه كثيرا من أمور الدولة، وأمر بأن يكاتب عبدالرحيم باعتباره ولى العهد، وأن ينقش لقبه على العملة.

وأغضب هذا التغيير فى ولاية العهد الأميرة ست الملك. كما أغضب الكثيرين من رجال الدولة، واعتبروه مخالفا لمذهب الشيعة الاسماعيلية الذى هو مذهب الدولة، والذى سار عليه الخلفاء الفاطميين، وهو توريث أبنائهم.

كان غضب الأميرة ست الملك من هذا التغيير في ولاية العهد، ليس فقط لأنه مخالف لمذهب الشيعة، وإنما لأنه قد قضى نهائيا على أحلامها وطموحها في استرداد بعض نفوذها السابق إذا تولى السلطة ابن الحاكم الذى احتضنته هى وأشرفت على تربيته ورعايته.

ووسط هذا الجو المملوء بالغضب، والسخط، والتربص، خرج الحاكم بأمر الله فى احدى الليالى فى سنة ٤١١ هجرية كعادته إلى جبل المقطم لرصد النجوم والكواكب في مرصده الذى أنشأه لهذا الغرض، ممتطيا حماره المسمى بـ «القمر».. وكان من عادته إذا وصل إلى سفح المقطم أن يرد الحراس إلى المدينة ويكتفى ببعض الخدم.

ولم يعد للحاكم بأمر الله إلى قصره منذ تلك الليلة التى مضى عليها أكثر من ألف عام!

●●●

وكثرت الاشاعات والأقاويل عن اغتياله فى مؤامرة.

وقالوا ان هذه المؤامرة قد اشتركت فيها اخته الأميرة ست الملك.

ويؤيد فريق من المؤرخين اشتراك الأميرة ست الملك فى قتل أخيها الحاكم، ويجعلون منها العقل المدبر، ويقولون أنها وجدت فى شيخ قبيلة كتامه واسمه ابن دواس الشخص القادر على القيام بالمهمة، وكانت هذه القبيلة عصب الدولة الفاطمية، ويذكر المؤرخ أبو المحاسن أن الأميرة ست الملك قالت لابن دواس فى ختام مقابلتها له : «فإذا تم لنا ذلك(قتل الحاكم بأمر الله) أقمنا ولده موضعه، وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره، والقائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس لى غرض سوى

السلامة منه وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة».

ويرى فريق من المؤرخين أن ابن دواس شيخ قبيلة كتامة هو الذى قتل الحاكم بأمر الله، وأن الأميرة ست الملك لم تشترك فى تدبير عمليه القتل.

ويقول هذا الفريق أن الأميرة ست الملك استدعت ابن دواس شيخ قبيلة كتامة إلى القصر بعد مقتل الحاكم بأمر الله، فجاء مغتبطا ظنا منه أن مقتل الحاكم بأمر الله قد أراح الأميرة ست الملك، لكنه أخذ على غرة، وقتل بأمر من الأميرة ست الملك، وقيل أن قتله كان انتقاما لقتل أخيها الحاكم بأمر الله.

لكن المؤرخ المسبحى، وهو من المعاصرين للحاكم بأمر الله، يذكر فى كتابه اخبار مصر عن سنتى ٤١٤ و ٤١٥ هجرية، أنه قد القى القبض فى محرم سنة ٤١٥ هجرية على رجل من بنى حسين، يصفه بأنه «ثائر بالصعيد الأعلى» وأن هذا الرجل اعترف بأنه قتل الحاكم بأمر الله ومعه أربعة آخرون، وأن الاربعة تفرقوا فى البلاد، فمنهم من مضى إلى برقة، ومنهم من مضى إلى العراق. وأظهر الرجل قطعة من جلد رأس الحاكم بأمر الله، وقطعة من الفوطة التى كانت عليه.

وعندما سئل الرجل: لماذ قتلته؟

قال : غيرة لله.. وللإسلام.

وسئل الرجل : وكيف قتلته؟

فأخرج الرجل سكينا وضرب بها نفسه، وقال : هكذا قتلته.

وقطعوا رأس الرجل.

ويعلق المؤرخ المقريزى على رواية المؤرخ المسبحى فيقول : وهذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم، وليس ما يحكيه المشارقة فى كتبهم عن أن أخته الأميرة ست الملك قتلته.

●●●

بعد مقتل الحاكم بأمر الله، عملت الأميرة ست الملك على مبايعة ابن الحاكم للخلافة، ولقبته باسم الخليفة الظاهر لدين الله، وكان عمره دون السابعة عشرة.

وهكذا تحققت رغبة الأميرة ست الملك فى ممارسة السلطة والحكم فى عصر ابن أخيها، واستمر الأمر كذلك لمدة أربع سنوات، أى حتى وفاتها.

وقد قامت الأميرة ست الملك فى هذه السنوات الأربع بتدبير أحوال الدولة، وأظهرت مهارة كبيرة فى إدارة دفة الأمور، فقام الخليفة الظاهر بوحى منها بالغاء احكام التحريم الشديدة التى كان قد فرضها أبوه، وسادت سياسة التسامح الدينى، وابتعد الحكم عن سياسة العنف التى اصطبغ بها شطر كبير من عصر الحاكم بأمر الله.

وأنجزت الأميرة ست الملك فى هذه السنوات الأربع كثيرا من الاصلاحات الداخلية، وأعادت النظر فى الاقطاعات والمنح التى كان الحاكم قد اسرف فى منحها، واصلحت البلاد وأحوالها المالية فعمرت خزائن الدولة.

وكذلك أمرت بمطاردة الملحدين والمتطرفين من الشيعة الذين اذاعوا الخرافات عن ألوهية الحاكم بأمر الله.

كما عنيت الأميرة ست الملك بالسياسة الخارجية، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيرا إلى باسيل الثانى قيصر القسطنطينية لعقد أواصر الصداقة بين الدوليتن.

ونجحت فى التغلب على الأمير عزيز الدولة والى حلب الذى كان يعد للعصيان والاستقلال عن الخلافة فى مصر، واستطاعت أن تغرى غلامه بالتخلص منه، ثم وضعته مكانه.

وظلت الأميرة ست الملك تقوم بأعباء الحكم نيابة عن ابن

أخيها الخليفة الشاب حتى وافاها أجلها فى أواخر سنة ٤١٤ هجرية ولها من العمر خمس وخمسون سنة.

وقد شغلت أمور السياسة والحكم الأميرة ست الملك عن أن تترك لنا منشآت تحمل اسمها كما فعلت غيرها من ملكات وأميرات الدولة الفاطمية ممن لم تشغلهن أمور الحكم والسياسة.

لكن المؤرخ المقريزى يحدثنا عن «قاعة ست الملك» التى كانت من مبانى القصر الفاطمى الغربى والتى كانت بمثابة قصر وحدها.

ويحدثنا عن الجوارى اللواتى تركتهن عند وفاتها فيقول: إن عددهن يصل إلى ثمانمائة جارية!

وغير الجوارى - فقد تركت الأميرة ست الملك مجموعة من الجرار مملوءة بالمسك.

وكثيرا من الأحجار الكريمة والياقوت.

حكايات الجوارى

فى قصور الخلافة

ليالى الأنس فى الأندلس

وحكاية الخليفة مع الجارية « طروب »



٧

■ أول معهد للموسيقى فى الأندلس بدأ بالجوارى المغنيات

■ ابنة الخليفة المستكفى تكتب على وشاحها: رسالة إلى العشاق!

■ هدية موسيقار الأندلس للخليفة: جارية شاعرة اسمها « منفعة »!

من الأندلس جاءت الجوارى عند الفتح العربى.
وإلى الأندلس ذهبت الجوارى أيضا بعد الفتح.
الجوارى المشرقيات، أى الجوارى اللواتى جئن من بغداد ومن الحجاز ومن دمشق، واللواتى كن يحذقن فنون الغناء والموسيقى.

وكانت الدفعة الأولى بمثابة بعثة فنية تضم عدداً من الجوارى اللواتى استدعاهن الخليفة عبدالرحمن بن الحكم.. بناء على مشورة الفنان زرياب موسيقار الأندلس للانضمام إلى مدرسة الموسيقى التى أنشأها زرياب فى قرطبة عاصمة الأندلس!

كانت الأندلس، منذ الفتح العربى، ولاية تابعة للخلافة الأموية فى دمشق، وظل الحال كذلك حتى سقطت دولة بنى أمية،وتعقبهم الخليفة العباسى السفاح بالقتل والتشريد، وتمكن عبدالرحمن بن معاوية «حفيد هشام بن عبدالملك» من الهرب إلى الأندلس، وانتهز فرصة الخلاف الواقع بين الولاة العرب فى الأندلس وتغلب عليهم، فبايعه الناس بالامارة، وصار هو الخليفة. وجعل من قرطبة عاصمة ملكه. وقد لقب بعبد الرحمن الداخل، كما لقب أيضا بصقر قريش.

استطاع عبدالرحمن الداخل أن يؤسس دولة ثابتة الأركان، يؤيدها جيش قوى، عرفت باسم «الدولة الأموية فى الأندلس».

واهتم بنشر الإسلام والمحافظة عليه، وأنقذه من التأثر بمنازعات ولاة العرب قبله، كما اهتم بتعليم اللغة العربية لأهل تلك البلاد ونشر ما تضمنه من ثقافة إسلامية.

وكان عبدالرحمن الداخل، ومن جاء بعده من أمراء تلك الدولة الأموية وخلفائها مشغوفين بالشعر على مألوف طبيعتهم، وبالفنون الجميلة بصفة عامة.

ومن بعده تولى الخلافة ابنه هشام.

ثم تولاها الحكم بن هشام.

ثم عبدالرحمن بن الحكم المعروف بعبدالرحمن الأوسط، الذى نتوقف عنده ونروى عن الذى جرى وكان فى حكمه الذى امتد إلى ٣٢ سنة. من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هجرية.

●●●

كان الخليفة عبدالرحمن الأوسط معروفا بشدة شغفه بالغناء، كما كان هو نفسه شاعرا بالسليقة.

تولى الخليفة عبدالرحمن الأوسط الحكم سنة ٢٠٦ هجرية.

ومع توليه الحكم كان الفنان زرياب قد وصل إلى الأندلس بعد رحلة طويلة قطعها من بغداد إلى القيروان فى تونس ومن القيروان إلى الأندلس ثم إلى العاصمة قرطبة.

وكان الخليفة عبدالرحمن الأوسط قد خرج بنفسه لاستقبال الفنان زرياب عند حدود المدينة، وخصص له دارا من أحسن الدور. وكتب له راتبا فى كل شهر مائتى دينار، وعشرين دينارا لكل واحد من ابنائه الأربعة الذين قدموا معه، كما قرر منحه ثلاثة آلاف دينار على سبيل التكرمة، بالاضافة إلى منحه كميات من الشعير والقمح، واقطاعه من البساتين والضياع ما يقدر بأربعين ألف دينار.

جاء زرياب إلى الأندلس ومعه حريمه وأبناؤه وبناته وعدد من جواريه.

وبعد ثلاثة أيام استدعاه الخليفة عبدالرحمن إلى مجلسه وبدأ سماع غنائه.. وغنى زرياب فأبدع. مما جعل الخليفة يزداد به تعلقا وله حبا.

وتكلم زرياب فى أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، فكشف عن ثقافة واسعة، مما أعجب الخليفة فزاد فى تكريمه، واختصه بمجالسته على مائدة طعامه، وبالغ فى الاعتزاز به، حتى فتح له بابا خاصا يستدعيه منه متى أراد سماعه.

ولم تقف مواهب زرياب عند اجادة الغناء والمهارة فى العزف، بل تخطت ذلك إلى تحسين صناعة العود، واخترع مضرب العود «الريشة» من قوادم النسر، وكانت لا تزال حتى وقته من الخشب، ووجه عنايته إلى سائر الآلات الموسيقية فنقل إلى الأندلس كل ما سبقت معرفته لبلاد المشرق العربى، ثم أخذ يبتكر فيها حتى توافر للأندلس ثروة من تلك الآلات لم تعرفه بلد قبله.

أما العبقرية الفذة التى كشفت عنها موهبة زرياب فهى طريقته المبتكرة فى تعليم الغناء وتلقين الألحان، وكذلك طريقته فى امتحان أصوات تلاميذه قبل البدء فى تعليمهم.

●●●

وقد أشار زرياب على الخليفة عبدالرحمن أن يستدعى عددا من الجوارى المغنيات «القيان» ممن برعن فى هذا الفن فى بلاد المشرق العربى مثل بغداد والحجاز ودمشق، ففعل الخليفة، وجئن إلى الأندلس. وأقام الخليفة لهن دارا خاصة فى قرطبة أسماها «دار المدنيات» فكانت أول معهد للموسيقى فى الأندلس، وكان زرياب هو عميد هذا المعهد. واتخذ من أبنائه وبناته وجواريه

أساتذة لمساعدته على تطوير فن الجوارى المغنيات بما يحقق نهضة جديدة تناسب حياة الأندلس.

وكان المنهج الدراسى لهذا المعهد يشمل تعليم مختلف أنواع العزف والغناء والتلحين والشعر بسائر عروضه والرقص. وكان الاقبال على المعهد عظيما، فكان يقصده الطلاب العرب وغير العرب، من الأندلس وخارجها، وكان له أثره فى النهوض بفنون الموسيقى والشعر فى تلك البلاد التى امتد الكثير من فنونها إلى أوروبا بعد ذلك.

وقد قامت الجوارى المشرقيات اللاتى جئن من بلاد المشرق العربى، والكثيرات ممن تخرجن فى هذا المعهد بتعليم«الاحرار من نساء الأندلس» تلك الفنون فى حشمة ووقار - حسب تعبير المؤرخين!

ولم تكن المرأة الأندلسية أقل شغفا بالغناء من المرأة فى العراق أو الشام، خاصة أن طبيعة بلاد الأندلس الساحرة كانت تضفى من جمالها ما يدعو الناس إلى أسباب الأنس والطرب.

ولذلك سرعان ما وجدنا فى قرطبة من مجالس الغناء ما لا يقل عظمة وفخامة عن مجالس الغناء فى بغداد، فقد اشترك فى أحد مجالس الغناء الأندلسية مائتان من المغنين والمغنيات يضربن بمختلف الآلات الموسيقية.

وكثرت مجالس الغناء والطرب مع مجالس الأدب، وتعددت أنواع وألوان تلك المجالس، فكانت ندوات لاجتماعات أدبية شعرية غنائية تشدو فيها الجوارى المغنيات بمصاحبة مختلف الآلات الموسيقية. وكانت النساء يحضرن هذه المجالس فى أكثر الحالات.

وهكذا تحول بلاط الخليفة عبدالرحمن من الخشونة إلى ترف

قصور الحكام وأصحاب السلطان فى المشرق العربى.

واملتأت القصور بالجوارى.

واصطفى الخليفة عبدالرحمن من بين الجوارى جارية اسمها «طروب». فصارت محظيته التى لم يكن يطيق مغاضبتها ـ كما ذكر المؤرخون!

وقد أغضبها يوما فأغلقت حجرتها على نفسها ولم تفتح له.

ولم ير إلى ترضيتها سبيلا إلاّ سد الباب بالدراهم من خارجه!

وطلب منها أن تفتح الباب على أن تكون جميع الدراهم لها.

ففتحت الباب وخرجت إليه واخذت فى تقبيل قدميه.

وحدث أن غاب الخليفة عبدالرحمن عن جاريته طروب فى احدى غزواته، واشتاق إليها، فكتب يقول :

فقدت الهوى من فقدت الحبيبا
فما أقطع الليل إلاّ نحيبا
إذا ما بدت لى شمس النهار
طالعة ذكرتنى «طروبا»
ألاقى بوجهى سموم الهجير
إذا كاد منه الحصى أن يذوبا
أنا ابن هشام ومن غالب
أشب حروبا وأطفى حروبا

وقد بلغ من تأثير الجارية «طروب» والمغنى «زرياب» داخل بلاط الخليفة عبدالرحمن، أن شاع وذاع القول بأن تسيير دفة الأمور فى بلاط الخليفة يقع تحت سلطان جاريته «طروب» ومغنيه «زرياب»!

● ● ●

لم يكن أثر زرياب مقصورا على تطوير الموسيقى والغناء

بالأندلس، وتجديده فيهما، وسحر أهلها بحسن صوته وجمال أدائه واعجاز فنه.. فقد فتن الناس فوق هذا كله بأدابه وسعة ثقافته وتنوع معرفته. كان عالما بالنجوم، وتقويم البلدان وطبائعها، ومناخها، وتشعب بحارها، وتصنيف شعوبها.

كما كان له حظ عظيم من أداب اللياقة، وضروب الظرف، وفنون الأدب، وآداب المجالسة وطيب المنادمة والمحادثة. وكان له من مظاهر الجمال والتأنق ما تفرد به حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس والأمراء والاشراف قدوة فيما سنه لهم.

وقد أشاع زرياب فى الأندلس كلها روح الظرف وألوان الترف والتجديد فى كل شيء. وكان هو الذى جعل الجوارى يكتبن الشعر على أثوابهن وعلى الآلات الموسيقية، أسوة بما كانت تفعله الجوارى فى المشرق العربى، وذلك زيادة فى التأنق والتظرف، وقد انتشرت هذه العادة فى قصور العظماء المترفين وتناقلتها الأميرات عن الجوارى، واستمرت بعد ذلك حتى قلدتها «ولادة» ابنة الخليفة المستكفى بالله، والتى قيل أنها كانت جميلة الصورة وجميلة الأدب وجميلة الغناء والصوت الساحر.. وكان قصرها ملتقى للأدباء والشعراء والمغنين، وكانت هى شاعرة حادة المزاج صريحة، وقد طرزت بالذهب الخالص على طرف وشاحها أبياتا من الشعر تقول فيها :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على طرف وشاح آخر تقول :

أمكن عاشقى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

●●●

وهناك عدد من الجوارى اللواتى ذاعت شهرتهن فى بلاد

الأندلس وارتبطت أسماؤهن بالنهضة الموسيقية التي تحققت هناك مع أستاذهن زرياب.

ومن هذه الجواري جارية اسمها «منفعة» وكانت من جواري زرياب، وقد قام بتثقيفها وتعليمها، فكانت تؤدي أغانيه أحسن آداء، ويقولون عنها أنها كانت رائعة الجمال.

وحدث يوما أن وقفت بين يدي الخليفة عبدالرحمن وأخذت تغني له وتسقيه، فلما فطنت لا عجابه بها، كاشفته هي الأخرى بميلها إليه، وراحت تغني له من أشعارها:

يامن يغطي هواه ... من ذا يغطي النهارا
قد كنت أملك قلبي ... حتى علقت فطارا
يا ويلتا، أتراه ... لي كان أو مستعارا

ولما أحس زرياب بأنها حازت من الخليفة قبولا ورضا، أهداها إليه فحظيت عنده.

● وهناك الجارية «مصابيح» جارية الكاتب أبي حفص عمر بن فلهيل، وهي من تلميذات زرياب اللواتي أخذن عنه فنون الغناء والموسيقى، وكانت غاية في الجمال وعلو النفس وحسن الصوت، وقد رغب ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد في سماعها ولكن مولاها أبا حفص أبى عليه ذلك، فكتب إليه ابن عبد ربه أبياتاً رقيقة تقول :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد
ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة
أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما بلغه ذلك قبل بأن يدخل ابن عبد ربه إلى مجلسه والتمتع بسماع جاريته مصابيح.

● وهناك الجارية «فضل»، وكانت على جانب كبير من حسن الخلق وجمال الصوت، وهي من جوارى إحدى بنات هارون الرشيد، نشأت فى بغداد، وبعد أن أعتقت جاءت إلى الأندلس حيث ذاعت شهرتها.

● وهناك الجارية «علم» وكانت حسنة الصوت. عالية الثقافة، وقد نالت شهرة واسعة فى بلاد الأندلس.

● وهناك الجارية «قلم» وهى أندلسية الأصل، حملت وهى صبية إلى المشرق، وتعلمت أصول الغناء حتى برعت فيه، وكانت على جانب عظيم من فصاحة اللسان والمقدرة البيانية.

● وهناك الجارية «قمر» وكانت رائعة الجمال، وثيقة المعرفة بفنون الغناء وصوغ الألحان، وقد قدمت من بغداد، وأصبحت أديبة وشاعرة فى الأندلس.

ومن شعرها فى الشوق إلى بغداد :

آه على بغـــدادها وعـــراقـــهـــا
وظبـــائهـــا والســحـــر فى أحـداقـــهـــا
مـــتـــبـخـــتـــرات فى النعـــيم كـــأنمـــا
خلق الـهـوى الـعـذرى مـن أخـلاقـــهـــا
نفـسـى الفـداء لهـا لأى مـــحـــاسـن
فى الدهـر تشـرق مـن سنا إشـراقـــهـــا

●●●

كان فتح العرب للأندلس أهم حدث حضارى اجتماعى وقع فى العصور الوسطى. ويجمع المؤرخون على أنه لم يكن غنما وكسبا للعرب بقدر ما كان نورا ورحمة للشعوب الأوروبية جمعاء، فقد انبعثت من بلاد الأندلس حضارة عالمية فاضت على جميع شعوب

أوروبا بمختلف ألوان المعرفة من علوم وفنون وآداب، بعد أن ظلت عشرات القرون، قبل الميلاد وبعده، تخيم عليها ظلمة الجهالة والفوضى والاضطرابات.

لقد وفدت إلى الأندلس العربية البعوث تلو البعوث والوفود تلو الوفود. من سائر بلاد أوروبا ينهلون من علوم العرب وفنونهم، ولم يقتصر الأمر على من يعنيهم الأمر ويهمهم طلب المعرفة من الشباب والشيوخ ومن مختلف الطوائف والهيئات، بل كانت هذه البعوث مما اهتم به أيضاً ملوك أوروبا وبذلوا فى سبيله عناية ملحوظة، ولم يقصروا بعوثهم على النابهين من الشباب، بل كان ضمن هذه البعوث بعض من افراد اسرهم الملكية ومن طبقات الاشراف.

فقد أرسل جورج الثانى ملك انجلترا بابنة أخيه الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات الأشراف، يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى الذى يحمل رسالة من الملك جورج الثانى إلى الخليفة هشام الثالث. وفى هذه الرسالة يقول:

من جورج الثانى ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام : بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء اثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة. وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز لتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن

اللواتى سيتوفرن على تعليمهن. وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص».

وختم الملك جورج رسالته بعبارة:

من خادمكم المطيع : «جورج»

وكانت الهدية شمعدانين من الذهب الخالص طول الواحد ثلاثة أذرع، مع مجموعة من الأوانى الذهبية عددها ٢٢ قطعة تعد من التحف النادرة.

ورد الخليفة هشام على ملك انجلترا بالرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين. وبعد: إلى ملك انجلترا وايقوسيا واسكدناويا الأجل.. لقد اطلعت على التماسكم فوفقت، بعد استشارة من يعنيهم الأمر، على طلبكم. وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وفى المقابلة أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية وهى من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافى للتدليل على التفاتنا ومحبتنا. والسلام.

وختم الخليفة رسالته بعبارة :

خليفة رسول الله على ديار الأندلس:

هشام.

ولم تكن هذه البعثة هى الأولى أو الأخيرة من البعثات التى أوفدتها أوربا إلى الأندلس.. فقد توالت البعثات الأوروبية على بلاد الأندلس تنهل من منابع الحضارة العربية.

٨

مغامرات الخليفة العاشق

الذى تولى الخلافة وعمره خمس سنوات !



- الخليفة يتخفى فى ملابس الأعراب ليرى البدوية الجميلة فى الصعيد

- ليلة مقتل الخليفة العاشق الذى كان مغرما بمطاردة الجوارى

- محراب زوجة الخليفة العاشق الذى أدهش الفرنسيين فى باريس

كان الخليفة العاشق هو سابع الخلفاء الفاطميين فى مصر.. وكان اسمه الآمر بأحكام الله! وكان حكمه بداية النهاية لعصر كامل امتد قرابة ثلاثة قرون، هو عصر الفاطميين، الذين زحفوا من المغرب إلى مصر وإلى الشام، وبسطوا نفوذهم على أرض الحرمين الشريفين.

كان محبا للهو، شغوفا بالمغامرات العاطفية، مغرما بمطاردة الجوارى! هكذا قال المؤرخون..

ويوم سمع عن بدوية حسناء تعيش فى أقصى الصعيد، شد الرحال إلى هناك، متخفيا فى ملابس الأعراب، وظل وراءها حتى رآها فوقع فى غرامها.. وكانت حكايتهما مثل حكايات ألف ليلة وليلة! وهكذا قال المؤرخون أيضا..

والغريب فى حكاية الخليفة العاشق أنه تولى الخلافة وعمره خمس سنوات! نعم خمس سنوات، حسب العقيدة الشيعية الإسماعيلية التى توجب تسلسل الخلافة وحصرها فى أولاد الإمام، فبعد وفاة والده، أخذوا له البيعة وعمره خمس سنوات، فصار هو الخليفة وأمير المؤمنين!

ورغم كل ما قاله المؤرخون عن الخليفة العاشق، ومغامراته، فلا تزال هناك، حتى يومنا هذا، طائفة من الناس تنظر إليه بكل

الإجلال والتقدير، باعتباره خليفتهم الذى كان أمير المؤمنين!

إنها طائفة «البهرة» احدى طوائف الشيعة الإسماعيلية.

ونعود إلى البداية.. بداية حكاية الخليفة العاشق.

●●●

● دخل المعز لدين الله القاهرة فى رمضان.. كان ذلك يوم الثلاثاء السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هجرية..

جاء قادما من المغرب..

ودخل القاهرة من باب زويلة.

واتجه موكبه إلى القصر الكبير.. قصر الخلافة.

وفى ذلك اليوم أصبحت مصر عاصمة للدولة الفاطمية.. دولة الخلافة الجديدة.. بعد أن كانت فيما سبق مجرد ولاية تابعة لبغداد..

وجاء كبار المصريين إلى الخليفة الجديد ليتعرفوا عليه.. وعندما سمح لهم بالكلام، سألوه عن «حسبه ونسبه»..

وكان رد المعز لدين الله مثيرا..

فقد نثر على الجميع دنانير الذهب، وقال : هذا حسبى..

ثم رفع سيفه بيمينه وقال : وهذا نسبى..

ولعل هذه القصة وراء القول المأثور عن «ذهب المعز وسيفه»، كأسلوب «للترغيب والترهيب» الذى يستخدمه بعض الحكام..

وقد تحدث المؤرخون كثيرا عن ذهب المعز الذى اجتذب به قلوب الكثيرين من الدعاة عند قيام دولة الفاطميين فى مصر..

كان المعز لدين الله رجل دولة من الطراز الأول..

وقد استطاع أن يقيم هذه الأمبراطورية التى انطلقت من المغرب إلى مصر ثم الشام وبسطت نفوذها على أرض الحرمين الشريفين..

وكان المعز اماما تقيا ورعا، يؤم الناس للصلاة، ويعظهم فى خشوع فيبكيهم..

وقد حرص أبناء المعز وأحفاده على الالتزام بمنهج الدولة الفاطمية القائم على مذهب الشيعة الإسماعيلية، والاقتداء بسلوك المعز..

لكن أحد هؤلاء الأحفاد، وهو الخليفة السابع، كان شخصية أخرى..

كان صاحب مغامرات عاطفية توقف عندها المؤرخون..

ووصف البعض غرامياته بأنها تفوق حكايات وقصص ألف ليلة وليلة.

إنه الخليفة «الآمر بأحكام الله»..

●●●

تولى الخليفة الآمر بأحكام الله الخلافة وعمره خمس سنوات! وذلك حسب العقيدة الشيعية الإسماعيلية التى توجب تسلسل الخلافة، والامامة وحصرها فى أولاد الامام.

حدث ذلك بعد وفاة والده.

وكان الوزير الأفضل هو الذى أتى بالطفل الصغير ونصبه مكان أبيه، وأخذ له البيعة باعتباره الخليفة الجديد، أمير المؤمنين، وجعل من نفسه كفيلا له، وتولى هو السلطة إلى أن يكبر الخليفة ويتولى بنفسه زمام الأمور..

ولكى يشاهد الناس الخليفة الجديد، فقد أعد الوزير الأفضل موكبا للطواف به فى شوارع القاهرة.. وجاء بفرس، وركب الوزير، ووضع الخليفة الجديد فى «حجره» وطاف به الشوارع، وخرج الناس ليشاهدوا الخليفة أمير المؤمنين وهو على حجر الوزير!

وكانت تلك هى المرة الأولى التي يرون فيها خليفة عمره خمس سنوات، لا يدرى ماذا يدور من حوله، ولماذا وضعوه فى حجر الوزير، وراحوا يطوفون به الشوارع.

●●●

بعد سنوات من هذا المشهد العجيب، كان الطفل الصغير قد كبر، وتولى زمام الأمور، وكان أول شيء فعله هو القبض على الوزير الأفضل! الوزير الذى اخذ له البيعة.

كان ذلك فى ليلة عيد الفطر..

وكان القبض على الوزير الأفضل لاستبداده بالسلطة، وتعسفه فى تصريف الأمور، وظلمه للناس..

وأمر الخليفة الآمر بأحكام الله بقطع رأس الوزير..

ووضع مكانه وزيرا آخر لتصريف أمور الدولة وهو المأمون البطائحى..

ولم يلبث أن قبض عليه هو الآخر، وأمر بقتله وصلبه، وذلك لاستبداده بالسلطة وظلمه للناس أيضا..

ورغم قيامه بقتل وزرائه لاستبدادهم وتعسفهم وظلمهم للناس، فقد كان الخليفة شخصية غريبة.

كان مستهترا، محبا للهو، مشغولا بمغامراته العاطفية، والجرى وراء الجوارى والفتيات الأعرابيات.

هكذا قال المؤرخون.

وفى عهده استولى الصليبيون على عكا سنة ٤٩٧ هجرية.

ثم اخذوا طرابلس فى سنة ٥٠٢ هجرية.

ثم بانياس.

ثم قصد الملك بردويل مصر ليأخذها، ودخل الفرما وأحرق جوامعها، لكنه هلك قبل أن يصل إلى العريش.

كل ذلك جرى فى عهد الخليفة العاشق، أمير المؤمنين، بينما هو مشغول بمغامراته العاطفية.

● ● ●

يروى المؤرخ المقريزى عن مغامرات الخليفة العاشق فيقول :

كان قد ابتلى بعشق الجوارى العربيات، وصارت له عيون فى البوادى.. وقد أبلغوه أن بالصعيد فتاة بدوية شاعرة، جميلة.. فقام الخليفة وتخفى فى ملابس الأعراب، وذهب إلى هناك، وأخذ يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها.. وبات هناك فى ضيافة أحدهم، وأخذ يتحايل حتى رآها فانبهر، وشغف بها، ورجع إلى مقر ملكه وهو يفكر فيها..

ثم أرسل إلى أهلها يخطبها، فوافقوا، وزوجوها منه.

وجاءت إلى القصر.. لكنها لم تسترح للعيش فيه.. فقد اعتادت الحياة فى بيت رحب مكشوف، لا تحده كل تلك الجدران..

وبنى لها الخليفة قصرا خاصا فى جزيرة الروضة وهو ما عرف بقصر «الهودج».. وكان على شاطىء النيل..

وانتقلت لتعيش فيه..

وكان الخليفة يأتى إليها فى هذا القصر.. بعد أن تنتهى مهامه فى تصريف أمور الدولة فى قصر الخلافة.

ويذكر المقريزى أن الناس قد أكثروا فى الحديث عن هذه البدوية الجميلة «عالية» التى تزوجها الخليفة.. والتى بقيت متعلقة الخاطر بأحد ابناء عمومتها وهو «ابن صياح» الذى كانت تحبه والذى كان من المتفق عليه أن يتزوجها.. قبل أن يراها الخليفة.. ويطلبها للزواج.

ويصف المقريزى أحاديث الناس عن البدوية «عالية» زوجة الخليفة، بأنها صارت كروايات الف ليلة وليلة..

● ● ●

كانت نهاية الخليفة العاشق، نهاية مأساوية.

يذكر المؤرخون أن عرافة عجوز أبلغته أنه سيموت مقتولا بالسكاكين، فكان الخليفة يردد لنفسه عندما يستبد به الضيق ويتملكه الحزن: ستموت يا مسكين بالسكاكين!

وتحققت نبوءة العرافة العجوز، وجرت الوقائع على نحو مثير.

كان القتلة عشرة أشخاص، ولم تكن لهم أى علاقة بالخليفة العاشق.

لكنهم قتلوه أخذا بالثأر!

كانوا من اتباع عمه نزار.. وكان من المفروض أن يتولى عمه الخلافة، لكن شقيقه الأصغر «والد الخليفة العاشق» دخل معه فى صراع، واستعان بأعوانه على قتله، وتولى هو الخلافة، ومن بعده جاء ابنه الخليفة العاشق.

وقد حاول أتباع العم نزار أن يأخذوا بثأره من شقيقه الذى اغتصب الخلافة، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك.

وعندما تولى ابنه من بعده ـ وهو الخليفة العاشق ـ أرادوا الانتقام منه، والثأر لعمه الذى كان أحق بالخلافة قبل والده!

●●●

كان القتلة عشرة.. وكانت خطة القتل التى أوردها المؤرخون، بكل تفاصيلها، فى غاية الغرابة.

جاء العشرة الذين يشكلون «فرقة الموت» من الاسكندرية، لقتل الخليفة العاشق فى القاهرة.

وحرصوا على التخفى حتى لا ينكشف أمرهم ويقبض عليهم.

وأمضوا أياما فى القاهرة يتابعون تحركات الخليفة العاشق.

وعرفوا أنه يأتى ليلا إلى «قصر الهودج» بجزيرة الروضة،

حيث تقيم زوجته ومعشوقته البدوية الجميلة «عالية».

كانت خطتهم هى إعداد «كمين» لقتل الخليفة وهو فى طريق عودته ليلا من قصر الخلافة إلى قصر الهودج بجزيرة الروضة..

لكن الشكوك بدأت تساورهم فى افتضاح أمرهم.. وأنهم أصبحوا مرصودين.. ويجرى البحث عنهم من جانب رجال الأمن المكلفين بحراسة الخليفة..

واختبأوا فى مكان بعيد وأخذوا يتدبرون الأمر..

وقال أحدهم إنه يجب أن يتأكدوا أولا من عدم افتضاح أمرهم وأنه يجرى البحث عنهم.

وتساءلوا : كيف نتأكد من ذلك؟

وقال أحدهم: على أحدنا أن يضحى بنفسه.. وأن يذهب متسللا إلى منطقة «بين القصرين».. التى بها قصر الخلافة.. وأن يقتل نفسه.. وسوف يتجمع الناس.. ويحضر رجال الأمن.. ليتعرفوا عليه.. ولو عرفوه.. فسوف يذاع ذلك.. وينكشف لنا الأمر.. أما إذا لم يتعرفوا عليه فمعنى ذلك أن سرنا مازال محفوظا ولم ينكشف أمرنا.. وعلينا أن نتحرك سريعا.. وننفذ خطة «الكمين»..

ووافق الجميع على هذا الاقتراح.. مع تعديل عليه.. وهو أن يقتل احدهم نفسه.. وأن يقطعوا رأسه.. وأن يأخذ اثنان الرأس.. ويذهبا فيلقيانها فى منطقة بين القصرين.

الرأس فقط..

وتسابقوا لاختيار أحدهم لقتل نفسه..

وقام الذى وقع عليه الاختيار فقتل نفسه..

وقام رفاقه بقطع رأسه..

وذهب اثنان فألقيا بها فى منطقة بين القصرين..

ووقفا من بعيد يرقبان ما يجرى..

وحضر بعض الحراس.. وحملوا الرأس إلى الوالى.. فأحضر عرفاء الأسواق ومشايخ الحارات فلم يتعرف عليه أحد..

واطمأن التسعة الباقون إلى أن سرهم مازال محفوظا، وأن أمرهم لم ينكشف، ولا أحد يعرف وجوههم..

وأخذوا فى تنفيذ خطة الكمين لقتل الخليفة..

●●●

على مقربة من الجسر المؤدى إلى قصر الهودج قامت فرقة الموت باعداد الكمين.

اثنان وقفا يرقبان الطريق فى انتظار الخليفة.

واختبأ السبعة الباقون فى انتظار الاشارة.

ولمحوا الخليفة قادما من بعيد فوق فرسه.

وانتظروا حتى اقترب..

وهجموا عليه فى وقت واحد، وأحاطوا به، وأخذوا فى طعنه بالسكاكين حتى أجهزوا عليه.

وقامت معركة بين القتلة التسعة وحراس الخليفة، انتهت بقتل القتلة.

ونقلت جثة الخليفة العاشق إلى قصر اللؤلؤة.

●●●

كان مقتل الخليفة العاشق بعد ٢٩ سنة و٩ أشهر قضاها فى الحكم..

وكان هذا الحادث هو بداية النهاية لعصر الفاطميين فى مصر..

وكان أيضاً بداية تطور جديد فى تاريخ طائفة الشيعة الإسماعيلية التى هى أساس الدولة الفاطمية

ويذكر المؤرخون أن الخليفة العاشق لم ينجب ولدا يتولى الإمامة والخلافة من بعده.

ولذلك عين الحـافظ عبدالمجـيد ـ وهو عم الخليفـة العاشق ـ امـامـا بالنيـابة أو امـاما مـسـتـودعـا حـسب اصطلاح الطائفـة الإسماعيلية.. ولكنه سرعان مـا دعا لنفسه بالامامة الكاملة بالرغم من مخالفة ذلك للعقيدة الإسماعـيلية وللتقاليد السابقة التى جرت عليـها.. ولم يأبه المـصريون إن كان الحـافظ عبـدالمجـيد امـاما بالنيابة أو اماما حقا.. فقد هان أمـر الخلافة والامامة والعقيدة فى نظرهم، وضعفت..

وقد استطاع صـلاح الدين الأيوبى، بعد ذلك، أن يقوض الدولة الفاطمية فى مصر، وأن يقضى على المذهب الشيعى.

لكن فرقة الإسماعيلية التـى انقرضت فى مصر، كان لها شأن آخر فى اليمن..

●●●

فعندما قتل الخليفة العاشق فى مصر، كانت تحكم اليمن سيدة اسمها «الملكة الحرة أروى».

كـانت تحكمه باسم الإمـام الإسـماعـيلى فى مصـر، أى باسم الخليفة العاشق الذى قتل.

ولما تولى الحافظ عبـدالمجيد الامامة بعد الـخليفة العاشق، لم تعترف به.. لأنه ليس له حق الإمامة..

واستطاعت بدهائهـا أن تفكر فى حيلة تجعلهـا تجمع فى يدها بين السلطتين السياسية والدينية..

فزعمت أن الخليفة العـاشق كان له أكثر من زوجة.. وأن احدى زوجاته كـانت حاملا وقت مـقتله.. وأنها وضـعت طفلا.. وأن هذا الطفل اسـمه «الطيب» وأن الإمـامـة هى لهذا الطفل.. وان الدعـاة المخلصين للإمام القتيل قـد خافوا على الطفل أن يلحقه الأذى من الحافظ عـبدالمـجيـد الطامع فى الإمامـة بغير وجـه حق، فقـاموا

باخفائه وأرسلوه فى «مقطف» إلى «الملكة الحرة أروى» باليمن.. فقامت باخفائه خوفا عليه.. وجعلت من نفسها كفيلة عليه ونائبة عنه فى تولى شئون الدعوة الإسماعيلية إلى أن يكبر.. واتخذت لنفسها لقبا هو «كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر بأحكام الله»..

وهكذا ظهرت «الاسماعيلية الطيبية».. نسبة إلى الطفل المسمى «الطيب» والتى زعمت الملكة الحرة أروى باليمن أنه ابن الخليفة القتيل الآمر بأحكام الله»!

لكن اتباع الدعوة «الإسماعيلية الطيبية» لم يقوموا بأى نشاط سياسى بعد ذلك، وركنوا إلى التجارة، وعاشوا فى محيط خاص بهم..

وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند الفرصة لنشر الدعوة «الإسماعيلية الطيبية» فى الهند، ولا سيما فى ولاية «جوجرات» جنوب بومباى.. وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك..

وعرفت الدعوة بينهم باسم «البهرة».

وهكذا ظهرت دعوة «الإسماعيلية البهرة».

وكلمة «البهرة» كلمة هندية قديما معناها «التاجر»..

وكان طائفة «البهرة» يحترفون التجارة.

ومن هنا نستطيع أن نفسر اهتمام «البهرة» بالآثار الفاطمية فى مصر!

● ولكن : ماذا يبقى من الخليفة العاشق؟ ومن زوجته ومعشوقته البدوية الجميلة «عالية» ؟

والاجابة تقول ا:نه يبقى للخليفة العاشق، جامعه الذى يعرف بجامع الأقمر.. والذى يصل عمره الآن إلى ٨٩٣ سنة! والذى يعد

طرازا فريدا من المساجد الفاطمية فى مصر..

ويبقى لزوجته ومعشوقته البدوية الجميلة «عالية».. هذا المحراب الخشبى المتنقل الذى يعد تحفة أثرية رائعة.. والذى أمرت بصنعه لتقديمه كهدية إلى ضريح السيدة رقية بالقاهرة..

والمحراب محفوظ الآن بمتحف الفن الإسلامى..

وكانت المحاريب المتنقلة تستخدم عند أداء صلوات الأعياد، أو الاستسقاء، فى الأماكن الخلوية لكثرة عدد المصلين ولتحديد اتجاه القبلة..

وكانت توضع أيضا فى الأضرحة والمساجد الصغيرة التى تمتلىء بالمصلين، فكانت تستخدم خارج المسجد أو الضريح للذين يؤدون الصلاة فى الخارج ..

وأهمية هذا المحراب تعود إلى أنه أقدم تحفة أثرية تمثل فنا متميزا من فنون الزخرفة الإسلامية، وهو فن الحفر على الخشب الذى أبدع فيه الفنان المسلم قبل ثمانية قرون..

ولهذه الأهمية، كان هذا المحراب من بين مجموعة القطع الأثرية التى سافرت إلى باريس فى المعرض الذى أقيم هناك من ثلاث سنوات.. وكان موضع اهتمام كل زوار المعرض من الفرنسيين.

●● لقد ذهب الخليفة العاشق، وذهبت البدوية الجميلة المعشوقة.. وبقيت سيرتهما.. كما بقى الجامع والمحراب.. وطائفة كبيرة من الناس، لا تزال على عقيدتها التى تضع الخليفة العاشق موضع الاجلال باعتباره كان خليفتهم، وكان أمير المؤمنين..

إنهم طائفة البهرة.

٩

ليلة زفاف حفيدة جنكيزخان فى القلعة



■ الرحلة الأسطورية لموكب حفيدة جنكيزخان من آسيا إلى القاهرة

■ ١٥٠ فارسا لحماية العروس و ٦٠ جارية لخدمتها

■ الزواج السياسى للسلطان الذى أحب الجارية التركية

كان زواجا اسطوريا، ذلك الذى جرى فى القلعة قبل سبعمائة عام! والذى جمع بين حفيدة جنكيز خان، القائد المغولى الذى فرض اسمه على التاريخ، واستطاع أن يهز بفتوحاته أركان الأرض.. وبين السلطان محمد بن قلاوون، الذى اراد بعدالانتصار على المغول، أن يطوى صفحة العداء والحروب والدماء، وأن يبدأ صفحة جديدة..

قطع موكب العروس تلك الرحلة الطويلة من أواسط اسيا إلى القلعة، بين حاشية تضم عديدا من امراء المغول وفرسانهم وستين جارية جاءت لتكون فى خدمة الأميرة المغولية..

وكان غريبا أن يختلف السلطان مع ملك المغول على المهر! فقد طلب ملك المغول الف الف دينار.. والف الف فرس.. والف عدة للحرب ! ولم يقبل السلطان، وتوقف الزواج، ثم عاد ملك المغول فارسل العروس دون اشتراطات على المهر!

كانت حفيدة جنكيز خان واحدة من أربع زوجات فى حياة السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

ولم تستطع، هى ولا غيرها من النساء، أن يكون لهن مكان فى قلب السلطان الذى كان شغوفا بحب جارية تركية اسمها «طغاى» وكانت هى الزوجة الأثيرة لديه.

وكان غريباً أن ينشغل المؤرخون، ليس فقط بالزفاف الاسطورى لحفيدة جنكيز خان، وإنما بما جرى لها أيضا «يوم الصبحية»!

ونعود إلى البداية..

●●●

المغول هم التتار..

وقد استطاع القائد المغولى «جنكيز خان» أن يفرض اسمه وشخصيته وشهرته على التاريخ، وأن يهز بفتوحاته أركان الأرض فيما بين الصين شرقا وبحر الادرياتيك غربا، خلال القرن الثالث عشر بعد الميلاد.

وفى عهد حفيده «هولاكو» اتجه المغول إلى القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد، بعد أن دانت لهم إيران التى كانت من أهم الدول التى تمثل العالم الإسلامى فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت..

وكانت الخلافة العباسية قد وصلت إلى حالة من الضعف يرثى لها.. وكان الخليفة الجالس على العرش «المستعصم بالله» رجلا ضعيف الشخصية قليل الخبرة بشئون مملكته، ليست له تلك الهيبة التى كانت لأسلافه من قبل..

ويذكر المؤرخون انه عندما اقترب المغول فى زحفهم من حدود بلاده لم يتحرك، ولم يخرج لصدهم، بل قال : انا، بغداد تكفينى، ولن يستكثرها المغول علىّ إذا ما تنازلت لهم عن باقى البلاد.

لذلك لم يجد المغول مقاومة كبيرة عندما قدموا إلى بغداد، فسرعان ما وقعت فى ايديهم. وسلم الخليفة نفسه وعاصمته بلا قيد ولا شرط..

وأمر «هـولاكو» بهدم اسـوار المدينـة.. واستبـاحهـا لجنوده. فدمـروا كل شيء.. حتى المـساجـد والقصـور.. وقتلوا ونهـبوا، واشعلوا النار فى احـيائها المـختلفة، ولم يبـق من بغداد الف ليلة وليلة سوى الاطلال هنا وهناك.

وسقطت الخلافة العباسية التى عاشت اكثر من خمسة قرون..

ومما يروى عن «هولاكو» والخليفـة المتخاذل الذى تهاون فى أمر بلاده.. أن «هولاكـو» أمر بسـجن الخليفة بعـد سقـوط بغداد ومنع عنه الطعام، فلما اشتد به الجوع اخذ يتوسل إلى حراسه أن يمدوه بما يسـد رمقه.. فأمر هولاكو أن تحمل إليـه اطباق مملوءة بالذهب.. وطلب إليه أن يأكل ما فيها.. فتعجب الخليفة وقال : كيف يمكن أن آكل الذهب؟ فرد عليـه هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل.. فلماذ احـتفظت به ولم توزعه على شعـبك حتى يصون لك ملكك؟ ومات الخليفة.

●●●

كان لسقوط الخلافة العبـاسية أسوأ الاثر فى نفوس المسلمين جـميـعا، اهتـز له وجـدانهم، وانفعلت بـه مشـاعرهم، واصـابهم الذهول، والحزن واليأس.

يقول المؤرخ ابن الاثيـر وهو يؤرخ لسقوط الخلافة العبـاسية وضياع بغداد: لقد بقيت عدة سنين معرضـا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارهـا لذكرها، فمن الذى يسـهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين؟ ومن الذى يهـون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمى لم تلدنى. وياليتنى مت قبل هذا وكن نسيا منسيا!

وقـال الناس: المـغـول هم بلاء قـد سلطه الله عـليـهم.. ولن تسـتطيع قـوة فى الأرض أن تهـزمهـم.. واخذوا يتسـاءلون عن مصير العالم الإسلامـى بعد أن ذهبت عنه الخلافة التى ظنوا أنها

باقيـة ابد الدهر؟ واين ستكون الضـربة القادمـة للمغـول بعد أن استولوا على بغداد؟!

وتقدم المغول إلى بلاد الشام..

واستولوا على حلب بعد مقاومة عنيفة..

ثم اندفعوا إلى دمشق..

وقبل أن يصلوا إلى أبوابهـا، كانت أخبار انتـصارهم فى حلب، والفظائع التى ارتكبوها قـد وصلت إلى أهالى دمـشق فـرأوا من الحكمة أن يخـرجوا للقـاء قائد المغـول هولاكو وأن يحـملوا إليه الهدايا ومعها مفاتيح دمشق.

وهكذا دخل المغول دمشق دون اراقـة دماء، واتموا فتح معظم بلاد الشام.

ثم وصلوا إلى «غزة».

وفى غـزة كانت الهـزيمة فى انتظارهم على يـد جيش مـصر.. الذى كان يقوده الظاهر بيبرس..

وتقدم المصريون إلى عكا..

وكـان الصدام الثـانى بين جـيش المـغول وجـيش مصـر فى «عين جالوت»..

وكانت هزيمة المـغول فى موقعة «عين جـالوت» اشد واقسى من هزيمتهم عند «غزة»..

كـانت مـوقعـة «عـين جـالوت» من أهم وقـائع تاريخ العـالم الإسلامى كله.. فقد كانت بمثـابة سد منيع حال دون تقدم المغول إلى مصـر وما وراءها من بلاد العـالم الإسلامـى.. فبـقيت مـعالم الحـضارة الإسـلاميـة فى هذه البلاد تشـهد العـالم على ما كـان لمصر من دور مجيد فى التصدى للمغول..

وارتفعت أهمية مصر بين بـلاد العالم الإسلامى وتبوأت مركز

الزعامة فهى الدولة الوحيدة التى استطاعت أن تنقذ العالم الإسلامى من خطرين عظيمين هما:

خطر الحملات الصليبية..

وخطر المغول..

●●●

لم يستطع المغول الصبر طويلا على هزيمتهم فى عين جالوت وسرعان ما أقسم قائدهم هولاكو على أن ينتقم من مصر ويغسل عار هزيمة عين جالوت، ويعيد إلى الاذهان سمعة المغول فى الحرب، تلك التى اهتزت على ايدى جيش مصر.. لكن هولاكو مات قبل أن يحقق تلك الآمال..

وجاء بعده أخوه تنكودار، وهو أول من أسلم من المغول، وكان قد شب على المسيحية تحت اسم نيقولا وتعمد فى صباه، ثم دخل فى الإسلام عندما بلغ الرشد، واتخذ لنفسه اسم «احمد خان» وبذل جهده فى ادخال المغول فى الإسلام، فاسلم الكثيرون منهم بالفعل..

واصبح الإسلام فيما بعد هو الدين الرسمى للمغول..

وفى عهد الظاهر بيبرس بعد أن أصبح سلطانا على مصر.. وفدت طوائف كثيرة من المغول المسلمين إلى مصر.. وسكنوا حى الحسينية..

وأقبل أمراء المماليك على التزوج من بناتهم لما امتزن به من جمال الخلقة..

لكن أشهر قصة زواج من بنات المغول.. كانت تلك التى تزوج فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون من حفيدة جنكيز خان.. وهى التى توقف عندها المؤرخون باعتبارها زواجا سياسيا.. كان

القصد منه أولا بدء صفحة جديدة بعد سنوات من الحروب والعداء..

●●●

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون من أعظم السلاطين في دولة المماليك.. وهو ينفرد بينهم بطول مدة حكمه.. فقد امتد حكمه هو وأولاده واحفاده لفترة بلغت ٤٨ عاما.. كانت القاهرة فيها حاضرة لامبراطورية شاسعة شملت الحجاز واليمن والشام..

ويذكر المؤرخ ابن اياس أنه ليس لاحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه، فقد تزايدت في أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمائر بمقدار النصف من جوامع وقناطر ومدارس وغير ذلك من العمائر..

ويصفه المؤرخ ابن تغرى بردى بأنه من أعظم الملوك مهابة وأحسنهم سياسة وأكثرهم دهاء.. فهو سلطان وابن سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه..

وكان السلطان الناصر يعتنى بذاته ويتجمل في غير اسراف، وكان يحب العلماء والعلم، ويستمع للموسيقى والغناء ويلعب الكرة ويركب الخيل ويخرج للصيد..

وكانت فيه نزعة للتدين، وكان عندما يوقع على أوراق الدولة يبدأ بعبارة «الله أملى» وكان يؤدى الفرائض ويحرص على أن يحج إلى بيت الله الحرام كلما سنحت له ظروف أعماله..

وعندما ذهب للحج لأول مرة ورأى الكعبة قال لأحد أصحابه من الأمراء : «مازلت أعظم نفسى إلى أن رأيت الكعبة المشرفة وتذكرت تقبيل الناس الأرض لى فدخلت فى قلبى مهابة عظيمة مازالت عنى حتى سجدت لله تعالى».

واقترح عليه أحد القضاة المرافقين له فى الحج أن يطوف بالكعبة راكبا كما فعل النبى صلوات الله عليه، فالتفت إليه وقال له فى خشوع: ومن أنا حتى اتشبه بالنبى صلوات الله عليه.. والله ما طفت إلا كما يطوف الناس.

●●●

لكن السلطان الناصر كان يؤمن ايضا بالخرافات التى يؤمن بها أهل عصره، فكان يمتنع عن زيارة المريض أو أكل السمك أو دخول الحمام فى أيام معينة.. وكان يحرص على استعمال البخور يوم الجمعة، وكان يتشاءم ويتطير ويؤمن بالسحر..

وقد حدث أن ضحك عليه أحد الدجالين واسمه يوسف الكيماوى، وادعى أن لديه القدرة على تحويل النحاس إلى ذهب.. وقام بتجربة أمام السلطان فأحضروا له بوتقة ملأها بالنحاس والقصدير واوقد تحتها النار حتى ذاب ما فيها من معادن ثم القى عليها بعض الأصباغ وافرغها فإذا هى فى صورة سبيكة من الذهب.. وانخدع السلطان الناصر بما شاهده وانعم على الدجال يوسف الكيماوى بالسبيكة التى عملها، وبالغ فى اكرامه.

وذاعت حكاية الدجال فى القصر.. كما يقول المؤرخ المقريزى واستطاع أن يخدع خدم السلطان وأن يستخف بعقولهم وأن يستولى على الكثير من أموالهم، ثم فكر فى الهرب.. فطلب من السلطان أن يأذن له بالسفر إلى غزة لاحضار بعض النباتات والأعشاب التى يستخدمها فى تجاربه، فأذن له وطلب من المسئولين هناك أن يقدموا له كل التسهيلات..

وهرب الدجال يوسف الكيماوى من القصر.. وانكشف أمره بعد ذلك والقى القبض عليه لكنه استطاع الهرب.. وخرج المنادى ينادى فى الناس للقبض على الدجال.. وقبض عليه فى الصعيد

في مدينة أخميم، واقتيد إلى القلعة.. ووقف بين يدى السلطان.. الذى سأله عن سر ما فعل؟ فقال الدجال : إنها خفة يد يا سيدى..

وكان عقاب الدجال عنيفا ورادعا لغيره من الدجالين.. فقد عوقب بالضرب والسجن حتى مات.. ثم «سمروه» على قطعة من الخشب وهو ميت.. وطافوا به القاهرة وهو على جمل!

●●●

كان للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أربع زوجات..

الأولى اسمها«اردكين» وكانت زوجة لأخيه السلطان الأشرف خليل، ولما قتل أخوه تزوجها حفظا لها..

والثانية اسمها «طغاى».. أو «أم انوك» كما كان يسميها المقريزى - وكانت أحب زوجات السلطان إلى قلبه.. وكانت فى الأصل جارية تركية.. وتحدث المؤرخون طويلا عن جمالها وشغف السلطان بها..

والثالثة اسمها «خوند» وهى ابنة أحد الأمراء الذين كانت تربطهم صلة وثيقة بالسلطان..

أما الرابعة فهى الأميرة المغولية «حفيدة جنكيز خان» واسمها «طلنباى» وكان زواجها هو الزواج الشهير فى تاريخ السلطان الناصر..

●●●

ويذكر المؤرخون أن السلطان الناصر أراد بهذا الزواج أن يبدأ صفحة جديدة مع المغول وأن ينهى بها ما كان بينه وبينهم من عداوة.. ومع أنه قد أحرز عليهم نصرا حاسما إلا أنه كان يحس اثر ما تركه هذا النصر من مرارة فى نفوس المغول..

وكان الذى شجع أكثر على هذه الخطوة هو طلب الصلح الذى تقدم به «أبو سعيد بن خربندا» الذى تولى عرش المغول بعد موت

ملكهم الذى مات بحسرة هزيمته أمام جيوش مصر..

ولم يكن السلطان الناصر أقل رغبة من ملك المغول فى الصلح.. فقد كان بطبعه ميالا إلى السلم، راغباً فى أن يسود السلام جميع البلاد.. ولذلك رحب بدعوة الصلح..

وظهرت فكرة الزواج من احدى بنات بيت جنكيز خان..

وأرسل السلطان برسله لكى تخطب له احدى بنات بيت جنكيزخان..

لكن نعرة التعالى القديمة لدى المغول جعلتهم يشترطون شروطا غير مقبولة لاتمام هذا الزواج..

كانت الشروط التى اشترطها المغول هى أن يكون «المهر» قدره الف الف دينار.. والف الف فرس.. والف عدة كاملة للحرب..

ويضاف إلى ذلك ضرورة حضور جماعة من امراء مصر مع نسائهم لكى يصحبوا العروس من بلادها إلى مصر..

واحس السلطان الناصر بما فى هذه الشروط من روح التعالى عليه.. فعدل عن الزواج..

ومضت ثلاث سنوات.. نسى فيها السلطان الناصر فكرة الزواج من أحدى بنات بيت جنكيز خان..

لكن شيئا حدث.. وكان مفاجأة للسلطان الناصر..

لقد بعث له ملك المغول باحدى حفيدات جنكيز خان.. باعتبارها العروس التى سبق للسلطان أن طلبها من بيت جنكيزخان..

جاءت حفيدة جنكيز خان فى موكب عرس لم يسبق له مثيل..

فقد قطعت العروس مسافة تمتد من أواسط آسيا إلى الاسكندرية، ومنها إلى مصر، فالقلعة..

وكان موكبا فريدا.

كان يصحب العروس.. بعض من أمراء المغول..

ومائة وخمسون رجلا من الفرسان..

وكان فى خدمتها ستون جارية..

وكان مع الوفد هدايا فاخرة للسلطان الناصر.. من بينها أقمشة ثمينة نسجت فى بلاد الصين خصيصا لهذه المناسبة.. ونقش عليها اسم السلطان الناصر..

●●●

كان موكب العروس وحاشيتها إلى مصر عن طريق البحر..

ومر الموكب فى طريقه على القسطنطينية.. وبالغ امبراطور الدولة البيزنطية فى اكرام العروس هى ومن معها.. وأرسل وفدا انضم إلى الموكب ليصحب العروس فى رحلتها إلى القاهرة.. وبعث مع الوفد بهدايا للسلطان الناصر..

ووصل موكب العروس إلى الاسكندرية فى ربيع الأول من سنة عشرين وسبعمائة هجرية ١٣٢٠ ميلادية..

وخرج رسل السلطان والأمراء إلى عرض البحر فى المراكب لاستقبال العروس.. والاحتفاء بها..

وجاء العربان بالجمال والطبول ووقفوا عند الشاطىء فى انتظارها..

ونزلت العروس إلى البر..

ونصبت لها الخيام المصنوعة من الحرير لكى تستريح من سفر البحر..

ثم واصلت الرحلة إلى القاهرة..

ركبت فى موكب فخم يسير بها فى النيل إلى القاهرة..

ووصل الركب إلى القاهرة..

ونزلت العروس إلى البر..

وركبت عربة إلى ميدان القلعة.. وأمام العربة كان يسير الحجاب..

وفى ميدان القلعة توقف موكب العروس.. ونصبت لها الخيام مرة ثانية فى الميدان..

وقضت العروس ثلاثة أيام فى الميدان وسط الاحتفالات..

ثم حملت من الميدان إلى القلعة فى عربة تجرها العجول.. موشاة بالذهب.. ومزينة بالحرير..

●●●

وفى القلعة أمضت العروس والحاشية يومين قبل أن يستقبلهم السلطان..

وعندما استقبلهم السلطان.. تكلم كبير الحاشية.. وكان رجلا مقعدا لا يقدر على القيام ولا المشى..

وقدم للسلطان كتابا يحمله من مولاه ملك المغول.. وقال الرجل للسلطان أنه سبق له أن طلب احدى بنات بيت جنكيز خان.. ولم يتحقق هذا الطلب حينذاك.. وأن ذلك أدى إلى تكدر خاطر السلطان.. ولذلك فقد رأى مولاه ملك المغول أن يرسل له هذه العروس.. وهو يأمل أن تحوذ أعجابه ورضاه..

واختتم الرجل كلامه للسلطان قائلا:

ـ وإن لم تعجبك فأعمل بقول الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾.

وقد رد السلطان على ذلك بقوله:

ـ نحن لا نريد الحسن، وإنما نريد كبر البيت والقرب من اخى ونكون نحن واياه شيئا واحدا..

وبدأت مراسم الزواج..

وتولى قاضى القضاة عقد القران على مهر قدره ثلاثون الف

دينار.. المعجل منها عشرون والمؤجل عشرة الاف..

وقدم السلطان هدايا للحاشية..

وتم الزفاف فى تلك الليلة..

ويذكر المؤرخون أن العروس حفيدة جنكيز خان لم ترق للسلطان!

وأنه تركها يوم «الصبحية» وخرج للصيد..

وأمر بتجهيز الرسل الذين كانوا فى صحبتها وتسفيرهم محملين بالهدايا..

●●●

وقد ظلت الأميرة المغولية حفيدة جنكيز خان، فى عصمة السلطان الناصر عدة سنوات ثم طلقها..

وبعد أن انقضت عدتها قام بتزويجها من أحد الأمراء..

وعلم ملك المغول بما جرى للحفيدة..

فأرسل كتابا للسلطان الناصر يعتب فيه عليه لتطليقه الأميرة المغولية حفيدة جنكيز خان.. ويطلب منه أن يعيدها إليه..

لكن الأميرة المغولية حفيدة جنكيز خان كانت قد توفيت قبل وصول رسالة ملك المغول..

وعاد رسل الملك محملين بالهدايا.. دون رسالة من السلطان..

●●●

كان الزواج السياسى هو أشهر زواج فى حياة السلطان الناصر محمد بن قلاوون..

أما أشهر حب فى حياته، فكان حبه للجارية التركية.

جارية واحدة تكفى .. للسلطان الغورى



١٠

■ بالإكراه ألبسوه العمامة وقالوا له : أنت السلطان !

■ مضحك السلطان الغورى اسمه « على باى » كان جاسوسا للسلطان سليم!

■ الغورى بنى مقبرة وفوقها قبة .. لكنه اختفى يوم المعركة !

كانت فى حياة السلطان الغورى جارية واحدة، هى الشركسية خوند جان سكر. وكلمة «خوند» معناها السيدة الجليلة!

كانت هذه الجارية هى «أم ولده»، وتعبير «أم ولده» - كما سبق القول - يطلق على الجارية التى تزف إلى الخليفة أو السلطان فتنجب له، وهو يختلف عن «أم ابنه» الذى كان يطلق على الزوجة التى هى من الحرائر وليس الجوارى!

يذكر ابن اياس المؤرخ : «أنه فى ١٩ من ربيع الأول عام ٩٩٢ هجرية توفيت «خوند جان سكر» الجركسية، مستولدة الغورى، وهى «أم ولده» الذى توفى فى سنة ٩١٠ هجرية»

ونعرف مما ذكره المؤرخون أن السلطان الغورى لم يكن مزواجا، وإن كان قد تزوج بأكثر من واحدة، وكان له ثلاثة أبناء.

ونعرف أيضا أنه لم يكن فى حياته سوى تلك الجارية التى أشار إليها المؤرخ ابن اياس وهى «أم ولده».

والسلطان الغورى الذى لم تكن فى حياته سوى جارية واحدة، كانت حكايته طويلة ومثيره، تستحق أن تروى.

●●●

فى القاهرة حى قديم عريق شهير اسمه «الغورية»..

وحى الغورية ينتسب إلى السلطان الغورى..

والسلطان الغورى كان السلطان الرابع والعشرين من سلاطين المماليك..

وكان السلطان الأخير أيضا فى دولة المماليك.. تلك الدولة التى حكمت مصر ما يقرب من ثلاثة قرون..

ومهما قيل عن الفتن والدسائس والمؤامرات والتطاحن... على النفوذ والسلطان والمال، فإن عصر المماليك يبقى أزهى عصور الدولة الإسلامية فى مصر..

فالمماليك هم الذين تصدوا لموجات الحملات الصليبية ولموجات المغول. وحققوا الانتصارات التاريخية الحاسمة..

وهم الذين حكموا هذه المنطقة من الوطن العربى من حدود ليبيا إلى الفرات.. ومن شمال حلب وشرقها إلى جنوب الحجاز..

وهم الذين حفظوها موحدة.. مترابطة طوال عصرهم..

وهم الذين عملوا على نشر الحضارة الإسلامية والعربية..

وهم الذين ازدهرت فى عصرهم كل الفنون.

●●●

وحكاية السلطان الغورى مثل حكاية أى مملوك من المماليك.. البداية واحدة..

فالمماليك كانوا يباعون ويشترون فى أسواق الرقيق.. تماما مثل الجوارى.

الرجال من المماليك كانوا يعملون حراسا وجندا فى الدولة..

والجوارى كن يعملن فى القصور.. وكانت منهن المثقفات والمغنيات والراقصات والخادمات.. ومنهن من اصطفاهن الخلفاء والسلاطين والملوك لأنفسهن فأنجبن لهم البنين والبنات..

وكان أغلب المماليك يجلبون إلى مصر من شبه جزيرة القرم.. ومن بلاد القوقاز.. ومن فارس والتركستان.. ومن بلاد ما وراء

النهـر.. وكان بعـضـهم من ضـفـاف بحر البلطيق.. ومن حـوض الدانوب..

وقد ترتفع مكانة المملوك وتسمـو منزلته، فيمنح لقب الامارة، ويصبح «أميرا»..

ويصبح الطريق ممهدا أمامه لتولى الوظائف الكبرى والرئيسية فى الدولة..

وقد يصبح السلطان أيضا..

وهذا ما جرى «للغورى»..

بدأ مـملوكا للـسلطان قايتـبـاى.. ثم اعتـقه قـايتـباى لذكـائه وشجـاعته.. وبدأ نجـمه فى الصعود.. فـأصبح أميـرا من الأمراء اصحاب النفوذ الذين بيدهم الحل والعقد كما يقولون..

ثم أصبح سلطانا..

ليس برغبته.. بل رغم أنفه!!

كان الغورى فى الستين من عمـره يوم عرضوا عليه أن يتولى الحكم وأن يكون هو السلطان.. لكنـه رفض.. وكان رفضـه شيـئا غريبا.. فقد جرت عادة المماليك أن يتقاتلوا للوصول إلى العرش.. وأن يكون الفائز عادة هو الأقوى..

لكن الأمراء قـرروا اختيـار الغورى.. ولم يقبلوا اعـتذاره الذى أبداه اشفاقا منه على نفسه من تحمل تلك المسئولية الكبيرة..

وسحبوه بالقوة، وهو يقاوم، وخلعوا ملابسه والبسوه الجبة.. ووضعـوا «العمـامة» على رأسـه بالاكراه بعـد أن أمسكوا بيـديه وشلوا حركته.. فهى «عمامة السلطنة»..

ثم بايعوه سلطانا!

بعدها كف عن المقاومة.. وانخرط فى البكاء..

واشترط شرطا واحدا لقبول السلطنة..

وسألوه عن هذا الشرط..

فقال «ألا يقتلوه» إذا ما فكروا في خلعه!!

فوافقوه على ذلك..

وطلب أن يحرروا له «محضرا» بذلك..

فحرروا المحضر..

وهكذا صار الغورى سلطانا على مصر.. في فترة من أحرج فترات تاريخها..

لكن بعض المؤرخين يقولون: إن رفض الغورى لقبول السلطنة في البداية كان من باب المناورة، وأنه كان أكثر الأمراء دهاء وفطنة، وأنه عرف كيف يخدعهم جميعا ويجعلهم ينادونه سلطانا..

●●●

وصف لنا المؤرخ المصرى ابن اياس شخصية السلطان الغورى فقال: كان طويل القامة.. غليظ الجسد.. ذا كرش كبير.. أبيض اللون.. مدور الوجه.. مشحم العينين.. جهورى الصوت.. مستدير اللحية.. ولم يظهر الشيب بلحيته إلا قليلا..

وكان الغورى متأنقا في ملبسه، ولوعا بالزينات ومظاهر الجمال والترف والتسلية، وكان يشد وسطه بحزام عريض.. ويلبس في أصابعه الخواتم من الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس.. وكان شغوفا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور..

وقال إنه كان ملكا مهابا جليلا مبجلا في المواكب، ملء العيون في المنظر، ولولا كثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال، لكان خيار ملوك الجراكسة، بل خيار ملوك مصر قاطبة..

ومنذ تولى الغورى السلطنة اتجه إلى حياة السلم والاستقرار

واهتم بمعالجة مشاكله الداخلية والقضاء على الفتن والدفاع عن كل جزء من أجزاء السلطنة دون أن يفكر فى توسيع حدودها..

وكان الغورى أكثر اتصالا بملوك العالم شرقا وغربا.. والتفت الغورى إلى تخليد اسمه باقامة العمائر والمنشآت، وتعتبر مجموعة السلطان الغورى من أبدع وأجمل المنشآت التى خلفها لنا سلاطين دولة المماليك الجراكسة، فقد اعتنى بها الغورى عناية فائقة، وبالغ فى تجميلها وزخرفتها لكى تزهو على غيرها من منشآت السلاطين.. ويعد جامع الغورى من أعظم المساجد فى القاهرة وقد وصل بزخارفه ونقوشه إلى حد الاسراف، وكذلك القصر والقبة والوكالة والسبيل..

واهتم الغورى بعلوم الدين واللغة العربية والطب والهندسة الزراعية وهندسة البناء وصناعة السفن والأسلحة..

وكان يعقد مجالس العلم والمناظرة بالقلعة ويدعو إليها ويشارك فيها.. وكان أديبا فصيحا ينظم الشعر العربى الفصيح..

وكان مولعا بسماع الأغانى والموسيقى.. وفى عصره كثر المغنون والموسيقيون وكانت لهم بين الناس مكانة عظيمة.. ويذكر المؤرخ ابن اياس ان الغورى سافر إلى الفيوم فى شهر ذى القعدة سنة ٩١٨، وفى طريقه إليها نصبوا له خيمة كبيرة عند سفح الهرم واستصحب معه جماعة من المغنين والموسيقيين كان منهم محمد بن عونية العواد وجلال السنطيرى والبوالقة وابن الميمونى وغيرهم.. وعندما أقام الغورى حفل زفاف الأمير قايتباى اجتمع فيه خمس وعشرون رئيسة من المغنيات!

وقال ابن اياس ان الناصرى بن قجق نديم السلطان الغورى كان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصناعة الانغام، ولما مات فى رمضان سنة ٩١٠ كانت جنازته حافلة ،مشى فيها أعيان الناس..

وأنشأ الغورى بستانا عظيما بميدان القلعة.. وجلب له أنواعا من الفواكه والزهور من بلاد الشام، وكانوا يضعون له فى البستان دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس وفوقها مقعد يجلس عليه وتظلله فروع الياسمين ويقف حوله المماليك وبأيديهم المنشات ينشون عليه.. وكان يعلق فى الأشجار اقفاص الطيور، ويطلق بين الأشجار دجاجا من الحبشة ونوعا من البط يعرف بالبط الصينى..

وكانت المبالغة فى الزينة واعداد الموائد هى طابع حفلاته.. ويصف ابن اياس حفلاً اقامه السلطان الغورى فى ميدان القلعة وسط بستانه فقال ان المائدة اعدت فى خيمة كبيرة، ووضع فيها من الأوز والدجاج والغنم ما لا حصر له، ومن اللحوم الأخرى الفا وخمسمائة طير، ومن الغنم المعاليف خمسين معلوفاً، ومن الرضع أربعين، حتى قيل أنه انفق على ذلك كله اكثر من الف دينار بما فى ذلك الحلوى والفاكهة والسكر!

ورغم أن السلطان الغورى تولى الحكم وهو فى الستين، وبقى حتى جاوز الخامسة والسبعين ببضعة شهور.. فقد كان مولعا أيضا بالرياضة والرحلات الرياضية وكان يلعب الكرة ويتبارى فى ضربها مع الأمراء ـ وهم يركبون الخيل ـ بمضارب خاصة وكانت هذه هى رياضته المحببة، وكان لها موسم يستمر شهرين فى السنة وكان يشجع العاب الفروسية والمهارة.. ويتسلى بمشاهدة صراع الكباش والثيران..

●●●

وعلى الرغم من اهتمام السلطان الغورى بمظاهر الأبهة والعظمة وولعه بالتأنق وسماع الموسيقى والغناء.. فقد كانت له نزعة دينية شديدة، وتمسك قوى بتعاليم الإسلام، والحفاظ على

مظاهره وشعائره، وفضلا عن أنه تقرب إلى الله ببناء المساجد والمدارس وتقرير دروس الدين، فقد كان غيورا على الدين وعلى الأخلاق، وكان مواظبا على الصلاة، وعلى أداء صلاة الجمعة دون انقطاع فى مسجد القلعة، وكان شديد الاهتمام بأحياء المواسم والموالد والأعياد الدينية.. وكان لشهر رمضان اهتمام خاص لديه، وكانت صدقات رمضان يتم اعدادها من جانب ناظر الدولة وتحمل على عربات يسيرون بها فى شوارع القاهرة فى طريقها إلى القلعة.. وفى رمضان كان الغورى يستعرض نزلاء السجون ويطلق سراح الكثيرين ويسدد ديون المدينين منهم..

كما كان كثير الالتجاء إلى الله وخاصة فى أوقات الأزمات التى تداهم البلاد، فكان يلغى الضرائب الظالمة، ويصادر أماكن الخمر والفسوق، وينادى فى الناس باتباع أوامر الدين وتعاليمه وتأدية فروضه ومنع الأمراء من المحاكمات، والنظر فى قضايا المتخاصمين وترك ذلك لقضاة الشرع..

وحدث أن أصيب الغورى بمرض فى جفونه وخشى على نفسه من العمى، فكان يبكى ويتضرع إلى الله ويقول : يا من لا يوصف بالظلم والجور، أرحم عبدك الغورى.. ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.. وكان ينادى ربه: يا بصير.. يا بصير..

●●●

وفى حياة السلطان الغورى حوادث لها تاريخ.. وحوادث صنعت تاريخا وكانت فاصلا بين عصر وآخر..

ومن هذه الحوادث.. حكاية مضحك السلطان الغورى الذى كان يأنس إليه ويسرى عنه الهموم..

كان اسمه «على باى».. وبالرغم من أن له منافساً آخر فى

اضحاك السلطان اسمه «الشقنجى العجمى».. إلا أن «على باى» كان الأقرب والأقدر دائما على اضحاك السلطان.. كان يرقص ويغنى ويمثل دور العفريت.. وكان حريصا على أن يكون إلى جانب السلطان.. وكان الأمراء وكبار رجال الدولة يعرفونه ويعرفون قربه من السلطان.. وقد اتاحت له وظيفته وموقعه أن يعرف الكثير وأن يسمع الكثير.. كل الأسرار كان يعرفها «على باى»..

وتبين فيما بعد، بعد الذى جرى للسلطان، أن «على باى» لم يكن مضحكا فقط للسلطان الغورى، بل كان ايضا جاسوسا لحساب السلطان سليم العثمانى الذى تصادم مع السلطان الغورى..

لقد استطاع «على باى» أن يخدع السلطان الغورى رغم كل ما قيل عن دهاء السلطان وفطنته!

حادث آخر يتعلق بأحد رجال القضاء، وكان قد ضبط فى قضية اخلاقية واعترف بممارسة الفحشاء.. وشاعت القضية وصارت حديث كل الناس..

وأودع المتهم السجن لحين الفصل فى قضيته..

وحكم عليه بالرجم.. ووافق قاضى القضاة على هذا الحكم..

لكن أحد المشايخ، وكان صديقا للمتهم، طلب من المتهم أن يعدل عن اعترافه.. فعدل عن الاعتراف ثم ذهب الشيخ إلى القضاة والعلماء يستفتيهم فى عدول المتهم عن اعترافه.. فأفتوا بأنه يجوز له العدول عن الاعتراف.. وأنه حينئذ لا يعاقب..

وبذلك أفلت المتهم من العقاب..

كان الشيخ الذى تدخل لانقاذ صديقه اسمه الشيخ شمس الدين الزنكلونى..

وعلم السلطان الغورى بما حدث فغضب.. واعتبره تحايلا على الشرع حتى يفلت المتهم من العقوبة.. وقال : كيف يباح له العدول عن اعترافه وهو الذى اعترف بجريمته وسجل اعترافه بخط يده؟!

وعقد السلطان مجلسا للمحاكمة.. وجمع فى المجلس قضاة الشرع الأربعة وكبار العلماء.. وناقشهم فى المسألة.. فأصروا جميعا على أن الزانى له حق الرجوع عن اعترافه. وحينئذ لا يقام عليه الحد، وأن هذا هو رأى الشرع..

لكن السلطان الغورى لم يعجبه ذلك، وثار عليهم ثورة عارمة، وأخذ فى تسفيههم وتوبيخهم، وأعلن أنه سيشنق المتهم رغم انف القضاة، وأنه هو ولى الأمر الشرعى..

وفعلا أمر بشنق المتهم وصلبه.. وأن يكون الشنق عى باب القاضى الذى أقر عدول المتهم، نكاية فيه. أما الشيخ الزنكلونى الذى كان وراء عدول صديقه المتهم عن اعترافه فقد أمر السلطان بأن يضربوه الف عصا! ولم يعش بعدها..

ولم يقف السلطان الغورى فى غضبه على القضاة الأربعة عند هذا الحد، فقد عزلهم جميعا من مناصبهم، وظلت البلاد بغير قضاة لمدة خمسة أيام حتى اختار قضاة جددا..

وكانت هذه القضية مثار حديث كل الناس، وتندرهم، وكتب أحد الشعراء يقول :

لقد صلب السلطان من كان زانيا
وأظهر فى أحكامه مسلكا صعبا
فقلت لأرباب الفسوق تأدبوا
فحد الزنى قد صار فى عصرنا صلبا

●●●

ويبقى الحادث الكبير الذى صنع تاريخا جديدا..

كان الخطر الذى واجه الغورى هو خطر الغزو العثمانى.. الذى كان يقوده السلطان سليم..

وخرج الغورى على رأس جيشه لملاقاة الجيش العثمانى الزاحف نحو مصر..

وكان الصدام بين الجيشين فى تلك الموقعة المعروفة بموقعة «مرج دابق»..

كان جيش الغورى يقدر بنحو مائتى الف مقاتل..

وكان الغورى الذى خرج للقتال، على رأس هذا الجيش، دفاعا عن بلاده وسلطنته وكرامته، قد جاوز الخامسة والسبعين من عمره ببضعة شهور!!

وقد وصف لنا شاهد عيان ما جرى فى ذلك اليوم الذى خرج فيه السلطان الغورى للقتال، وهو المؤرخ المصرى ابن اياس.. فقال : «كان ذلك يوم السبت ١٥ من ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هجرية. وكانت القاهرة تموج بالحركة، وكان السلطان الغورى قد أعد جيشا عظيما وأخذ معه كل ما فى خزائن الدولة من مال وسلاح»..

ويروى عن يوم المعركة فيقول : فى صباح يوم الأحد ٢٥ من رجب سنة ٩٩٢ هجرية.. أحس الغورى بطلائع الجيش العثمانى.. فصلى الصبح، وركب فرسه، وكان على رأسه تخفيفة صغيرة، وعلى جسده ثوب أبيض، وعلى كتفه سلاح..

وصار الغورى يرتب عسكره بنفسه.. وأخذ موقعه فى القلب..

كان إلى جواره الصبى العثمانى الأمير «قاسم بك» أخو السلطان سليم الذى فر منه والتجأ إلى السلطان الغورى.. وقد حرص السلطان الغورى على أن يظهر هذا الصبى أمام الجنود العثمانيين لعلهم يلتفون حوله ويتركون سلطانهم.. ولكى يلفت

النظر إليه رفع فوق رأسه علما من الحرير الأحمر..

ومن حول الغورى التفت جماعة من الأشراف حاملين أربعين مصحفا شريفا موضوعة فى أكياس من الحرير الأصفر، من بينها مصحف للخليفة عثمان بن عفان.

وعلى مقربة من الغورى وقفت جماعات من الصوفية..

واقترب الجيشان.. المصرى والعثمانى..

وبدأ القتال.. ودارت رحى المعركة..

وانتصر الجيش المصرى فى البداية.. جيش الغورى..

وقتل من الجيش العثمانى ما يزيد على عشرة آلاف جندى.. وأسر الكثيرون..

وخارت معنويات السلطان سليم.. وكاد أن يهم بالتراجع والفرار..

لكن الدسيسة والخيانة المملوكية لم تلبث أن لعبت دورها..

وسرت شائعة بين الجنود بأن السلطان الغورى قد وضع فى مقدمة الجيش كل الذين يريد التخلص منهم..

ووقعت الفرقة بين المماليك..

وتعمد بعضهم الفرار..

وهرب أحد القواد الكبار وهو الخائن «خاير بك» بمماليكه..

واسترد العثمانيون معنوياتهم، واستأنفوا القتال بحماس..

وتفرق جيش الغورى، وتراجع، وقتل الكثيرون..

لكن الغورى بقى فى موقعه.. ولم يتراجع.. وراح ينادى جنوده وعسكره بالصمود والتصدى لجيش الغزاة..

والتفت إلى مشايخ الصوفية الواقفين قريبا منه وقال لهم : أدعوا الله لنا بالنصر.. فهذا وقت دعائكم..

●●●

كانت الهزيمة مفاجأة للغورى..

فاشتعل قلبه حزنا وكمدا..
وقيل أن الشلل قد اصابه..
وانه طلب جرعة ماء.. فجاءوا له بها فى طاسة من الذهب..
ولم يعرف ماذا جرى للسلطان بعد ذلك..
لقد انتهت المعركة بالهزيمة..
ولكن أين ذهب الغورى؟
وكيف كانت نهايته بالضبط؟
وأين جثته؟
لا أحد يعرف على وجه التحديد..
قالوا أنه سقط عن فرسه.. وأن الخيل داسته.. ولم يعثر له بعدها على أثر..
وقيل ان الذئاب نهشته..
وقيل أنه لما وقع على الأرض رأى أتباعه المخلصين أن يقطعوا رأسه ويخفوها فى جب حتى لا يستطيع العدو أن يتعرف عليه، ويمثل بجثته، ويطوف برأسه فى البلاد..
وقيل ان الأرض قد انشقت وابتلعته فى الحال!

●●●

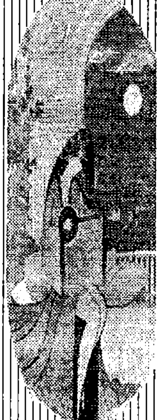
لقد بنى الغورى لنفسه مقبرة، وبنى فوقها قبة عظيمة مليئة بالزخارف والنقوش الجميلة.. بناها ليدفن فيها، ولكنها بقيت خالية حتى اليوم..

لم يبق من الغورى بعد المعركة سوى سيرته، وسيفه الذى يحمل اسمه:.. وشجاعة سلطان سقط فى معركة وهو يرفع أعلام بلاده، بعيدا عنها، وعمره خمسة وسبعون سنة و٩ أشهر و٣٥ يوما!

لم يكن حادثا عاديا.. فقد أخذ الاحتلال العثمانى بعده يدق أبواب مصر!

١١

يوم اعتقال السلطان حسن فى « قصر الحريم » !



- حكاية « الست مسكة » التى أصرت أن تدخل السجن مع السلطان

- السلطان حسن بنى مقبرته وحدد ٦٠ مقرئا لتلاوة القرآن على روحه .. ثم اختفى !

- يوم هروب السلطان من القلعة .. وهل دفنوه .. تحت العتبة .. ؟

بعد حياة طولها ثلاثون سنة وخمسة أشهر، قضاها فى صراعات ومواجهات دامية مع أمراء المماليك، اختفى السلطان حسن!

خرج من القلعة ليلا، هاربا، متخفيا فى ملابس الاعراب، يريد لنفسه النجاة، بعد معركة خاسرة، ثم اختفى..

ماذا جرى للسلطان؟

هل قتل؟ ومن الذى قتله؟ وأين اختفت جثته؟..

لقد بنى السلطان حسن لنفسه مقبرة عظيمة، وأقام فوقها قبة عالية جدا، ارتفاعها ٤٨ مترا، وحرص على تجميلها بالزخارف والنقوش، وحدد فى وصيته أن يقوم ستون مقرئا بتلاوة القرآن الكريم على روحه عند وفاته! وقرر المكافآت اللازمة لهم، كما قرر مكافأة لمن يدعو له بالرحمة عقب الصلاة!

وقد بقيت المقبرة تنتظر السلطان.. ومضت قرابة ٧٠٠ عام وهى لا تزال خالية منه!

أين اختفى السلطان؟ أين ذهبت جثته؟

ذلك هو السؤال الذى لا يزال يتردد، بعد سبعة قرون، على لسان كل من يزور القبة وهم كثيرون، خاصة السياح؟

إنه السؤال.. اللغز فى حياة السلطان الذى أتى به أمراء

المماليك من قصر الحريم وهو صبى صغير، وأجلسوه على العرش، وقالوا له أنت السلطان!

وعندما غضبوا عليه بعد ذلك، وفكروا في اعتقاله، وجدوه فى قصر الحريم!

وقد وصف المؤرخون ما جرى يوم القبض على السلطان فى قصر الحريم، وقالوا ان المرأة التى صرخت في وجوه أمراء المماليك الذين جاءوا للقبض على السلطان، لم تكن من زوجاته ولا من جواريه، وإنما مربيته! وهى امرأة مغولية اسمها «الست مسكة». وأصرت على أن تكون إلى جانبه، حتى وهو فى السجن! فأدخلوها معه!

وهكذا أصبحت الست مسكة حكاية فى تاريخ السلطان حسن.

● ● ●

كان جده سلطانا على مصر..

وكان أبوه سلطانا أيضا..

وكان أخوته الستة الذين يسبقونه فى العمر من سلاطين مصر أيضا، فقد تولى الواحد منهم بعد الآخر عرش السلطنة..

ثم جاء الدور على السلطان حسن..

وبالرغم من أن نظام وراثة الحكم لم يكن متبعا فى دولة المماليك، حيث كان الحكم للأقوى، ولصاحب الكفاية الشخصية، والمهارة الحربية، وكثرة الاتباع والأعوان.. إلا أن هذه الأسرة قد توارثت الحكم قرابة المائة عام أو تزيد..

إنها اسرة السلطان قلاوون..

وقلاوون جاء إلى مصر صغيرا.. اتى به تجار الرقيق من أواسط آسيا، ثم باعوه فى سوق الرقيق فى مصر بألف دينار، وهو مبلغ كبير قياسا على ما كان يدفع فى شراء أى مملوك فى

ذلك الوقت.. لكن قلاوون كان يساوى هذا المبلغ للصفات العديدة التى تجمعت فى شخصيته ومنها القوة والذكاء والوجاهة وجمال الخلقة..

كان الذى اشتراه هو احد امراء المماليك الذين يعملون فى خدمة الملك العادل الأيوبى، واهتم بتربيته وتعليمه وتنشئته تنشئة عسكرية..

واستطاع قلاوون أن يشق طريقه بعد ذلك، وأن يواصل صعوده، وأن يصل إلى منصب القائد العام للجيش وأن يغتصب العرش وأن يصبح هو السلطان.

لكن أولاده واحفاده الذين تولوا الحكم من بعده، ولدوا جميعا فى مصر، وعاشوا فى قصور القلعة.. واشتروا المماليك بدورهم من أسواق الرقيق ليكونوا فى خدمتهم..

وأحد هؤلاء الأحفاد كان السلطان حسن..

●●●

كان السلطان حسن صبياً فى الثالثة عشرة من عمره عندما أتى به الأمراء وأجلسوه على العرش وقالوا له أنت السلطان..

كان الأمر مفاجئا.. ولم يكن هناك ترتيب مسبق.. كان أخوه السلطان «المظفر حاجى» قد قتل.. فاجتمع الأمراء ليتدبروا الأمر، واتفقوا على أن يكون السلطان الجديد هو السلطان حسن.. وبحثوا عنه فى قصور القلعة حتى وجدوه فى قصر الحريم، فأتوا به ليتولى السلطنة.

كان ذلك فى ١٤ من شهر رمضان سنة ٧٤٨ هجرية..

وقام الأمراء، كما هى العادة، فقبلوا الأرض بين يديه، وبايعوه بالسلطنة.

لكن السلطان حسن لم يكن يملك من الأمر شيئا، فهو صبى صغير لا يتعدى عمره الثالثة عشرة.

ولذلك كان أمر المشورة والتدبير فى الدولة لتسعة من الأمراء.

كان الأمراء التسعة يشكلون مجلس وصاية، ويتولون شئون الدولة إلى أن يكبر السلطان حسن ويبلغ سن الرشد.

لكن الأمراء التسعة لم يحسنوا إدارة شئون الدولة، واشتدت الصراعات فيما بينهم.

وساءت الأمور..

وظهر الفساد، وانتشرت الرشوة وفرض الاتاوات وقطع الطريق..

وظهر وباء الطاعون وتفشى فى البلاد.. ويذكر المؤرخ ابن اياس أن أمر الطاعون قد تزايد بالديار المصرية، وهجم مرة واحدة، وعظم أمره جدا، حتى صار يخرج من القاهرة فى كل يوم نحو عشرين الف جنازة وقد تم حصر من مات بمرض الطاعون فى مدة شهرى شعبان ورمضان سنة تسع واربعين وسبعمائة، فكان نحو من تسعمائة الف انسان من رجال ونساء وكبار وصغار وجوار وعبيد، ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة..

ويضيف المؤرخ ابن اياس قوله : وصنعت الناس التوابيت والدكك لتغسيل الموتى حسبة لوجه الله بغير أجر، وحفرت الحفائر والقيت فيها الموتى، فكانت الحفرة الواحدة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر، وانتشر الوباء ببلاد الشرق جميعها..

●●●

بلغ السلطان حسن سن الرشد.. واصبح عمره ١٦ سنة.. فجمع الأمراء، وأحضر القضاة ليثبتوا إنه قد بلغ سن الرشد ... وإنه سيتولى بنفسه تدبير أمور الدولة..

وانتهت وصاية الأمراء..

وأخذ السلطان حسن يدير شئون الدولة بنفسه..

كان أول شىء فعله السلطان حسن هو القبض على عدد من الأمراء وارسلهم إلى السجن بالاسكندرية..

وكان لهذا التصرف أثره..

فأخذ الأمراء يتحسبون منه.. ويتوقعون أن تدور الدائرة عليهم..

واخذوا يعدون للتآمر عليه..

ومن جانبه حاول السلطان أن يدبر للقضاء على الأمراء المناوئين له..

وكانت خطته أن يبقى فى القلعة وأن يلزم الفراش، وأن يعلن أن السلطان قد اصابته وعكة.. وأن يتم القبض على الأمراء المناوئين عند حضورهم للاطمئنان عليه..

لكن الأمراء المناوئين.. أدركوا حيلة السلطان.. ولبسوا ملابس القتال.. واتفقوا على خلعه.. وأن يتولى أخوه «الصالح» العرش بدلا منه..

ووضعوا خطة للقبض على السلطان حسن فى القلعة..

وكلفوا الأمير «صرغتمش» بأن يقوم بهذه المهمة.

وصعد الأمير صرغتمش إلى القلعة لاعتقال السلطان حسن.

وبحث عنه فى قصور القلعة.

وعرف أنه فى «قصر الحريم» فتوجه إلى هناك وألقى القبض عليه.

يصف لنا المقريزى كيف جرى اعتقال السلطان حسن وهو مع حريمه فيقول :

طلعوا إلى القلعة راكبين، أى مستعدين للقتال، وبحثوا عن السلطان، وعرفوا أنه مع حريمه وجواريه فى القصر الأبلق، فتوجهوا إلى هناك، ودخلوا على السلطان، واخذوه من بين

حريمه، فصرخت النساء صراخا عظيما، وصاحت « الست مسكة» فى وجه الأمير صرغتمش المكلف باعتقاله صياحا شديدا، وسبته وشتمته وقالت له فى استنكار «هل هذا جزاؤه منك؟!» لكن صرغتمش اخذ السلطان وغطى وجهه وخرج به.. ولم تتركه «الست مسكة» واصرت على ملازمته، وأن تبقى خدمته فى أى مكان يوضع فيه..

وسمحوا لها بذلك..

وكانت «الست مسكة» هى المرأة الوحيدة التى دخلت السجن باختيارها لتكون إلى جانب السلطان حسب طوال فترة اعتقاله وتقوم على خدمته..

و«الست مسكة» لم تكن من جوارى السلطان حسن، ولم تكن احدى زوجاته، وإنما كانت امرأة فى عمر جدته.. ومع ذلك فقد كان لها شأن كبير فى حياته وحياة ابيه السلطان الناصر محمد بن قلاوون.. وكانت حكايتها من الحكايات التى استوقفت المؤرخين..

كانت «الست مسكة» من أصل مغولى.. وكانت قد جاءت ضمن اسرة الأميرة المغولية «اشلون خوندا» التى لجأت إلى مصر فرارا من غضب سلطان المغول.. وكانت فتاة فائقة الحسن والجمال.. وكان اسمها«جلشانة» وهى كلمة فارسية معناها «مثل الورد» أو «زى الورد» وقد عرفت فيما بعد باسم «الست مسكة» نسبة إلى الرائحة الطيبة.. رائحة المسك..

وعندما تزوج السلطان قلاوون «جد السلطان حسن» الأميرة المغولية «اشلون خوندا» كانت « الست مسكة» إلى جانبها ترعى شئونها.

وعندما انجبت الأميرة المغولية السلطان الناصر محمد بن قلاوون «والد السلطان حسن» لم تجد خيرا من «الست مسكة» لترعى طفلها وتكون مربية له..

ومن هنا كانت علاقة المودة والتقدير التى ربطت بين الناصر محمد بن قلاوون وبين «الست مسكة».

ويذكر المؤرخون أن «الست مسكة» لم تكن مجرد مربية للناصر محمد بن قلاوون، لكنها استطاعت بذكائها وقوة شخصيتها وحنكتها السياسية أن تلعب دورا هاما فى حياته الخاصة وحياته العامة، وإنها كانت إلى جانبه تشد من أزره فى كل النوائب والشدائد التى واجهها..

وعندما تقدمت بها السن صارت «قهرمانة قصر السلطان» التى يقتدى برأيها فى عمل الاحتفالات التى تقام فى الأعياد والمواسم إلى جانب ترتيب «شئون حريم السلطان»..

وقد ظلت «الست مسكة» فى خدمة الناصر محمد بن قلاوون إلى أن مات.. فانتقلت إلى خدمة أولاده..

وكان آخر الأولاد الذين عملت فى خدمتهم هو السلطان حسن.. الذى لم تتركه وقت المحنة عندما اعتقلوه وهو بين حريمه واصرت على أن تدخل معه السجن لتكون فى خدمته فسمحوا لها بذلك.

وقد عاشت «الست مسكة» فى السجن مع السلطان حسن إلى أن ماتت.

وبقى السلطان حسن وحده فى السجن..

ظل السلطان حسن رهن الاعتقال مدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما.. خرج بعدها من السجن ليتولى السلطنة من جديد..

كان الذى دبر عودة السلطان حسن إلى الحكم اثنان من كبار أمراء المماليك هما:

الأمير شيخون..

والأمير صرغتمش «الذى سبق له اعتقال السلطان حسن فى القلعة».

اتفق الأميران على ازاحة «السلطان صالح».. واعادة أخيه السلطان حسن للحكم.. وأن يكون لهما الدور الأول فى إدارة شئون الدولة.

وتم تنفيذ الخطة..

واعتقل السلطان صالح ووضع فى السجن..

وافرج عن السلطان حسن وعاد إلى السلطنة..

●●●

كان السلطان حسن قد استوعب الدرس واكتسب الخبرة فى مواجهة صراعات امراء المماليك من حوله..

ومع بداية عودته إلى الحكم لجأ إلى المهادنة مع الأميرين اللذين كان لهما كل النفوذ فى تدبير شئون الدولة..

وفجأة تعرض الأمير شيخون للقتل وهو جالس مع السلطان حسن فى «دار العدل»..

هجم عليه أحد المماليك وضربه بالسيف ثلاث ضربات اصابت وجهه ورأسه وذراعه فسقط مغشيا عليه.. ونقل إلى داره فى حالة سيئة..

واعترف المتهم بأنه ضرب الأمير شيخون وأراد قتله لأنه طلب منه بعض العطايا فمنعها عنه وأعطاها لغيره..

وأمر السلطان بأن يقتص من القاتل، وأن يتم «تسميره» على قطعة من الخشب..

كان موت الأمير شيخون قد أزاح خصما ثقيلا عن السلطان حسن.

ولم يعد ينازع السلطان سوى الأمير صرغتمش الذى اتسع نفوذه وتسلطه بعد انفراده بتدبير شئون الدولة.

لم يكن طموح الأمير صرغتمش يقف عند حدود وأخذ يعد للوثوب على السلطنة..

ولم يكن السلطان حسن غافلا عما يدبره الأمير صرغتمش.

وأخذ يعد الخطة لاصطياده والتخلص منه حتى يصفو له الجو، وتنتهى الصراعات، ويصبح السلطان صاحب الكلمة بلا منازع..

وكانت الخطة هى أن يتم القبض على الأمير عند دخوله على السلطان..

وأن يتحرك رجال السلطان لقتال أعوان الأمير والقضاء عليهم..

وتم تنفيذ الخطة..

والقى القبض على الأمير..

وجرى قتال واسع بين رجال السلطان واعوان الأمير خارج القلعة.. وكانت الغلبة لرجال السلطان..

واقتيد الأمير مكبلا بالاغلال إلى سجن الاسكندرية حيث مات فيه.

وهكذا صفا الجو للسلطان حسن..

وصار السلطان بلا منازع..

●●●

كان السلطان حسن قد بلغ الثانية والعشرين من عمره.. وأخذ فى ترتيب أمور الدولة.. وتدعيم سلطته.. وقلد انصاره وأعوانه أعلى المناصب..

ولم يقتصر الأمر على المماليك وحدهم، فقد عمل على «ترقية أولاد الناس المصريين الذين كان يقول عنهم: «هؤلاء مأمونو العاقبة وهم فى طى علمى وحيث وجهتهم إليه توجهوا ومتى احببت عزلهم امكننى ذلك بسهولة»..

وكان يقول أنهم أكثر رفقا بالرعية وأكثر معرفة بالأحكام..

ومع أن السلطان حسن لم يكن له ذلك الشأن الكبير الذى كان لغيره من سلاطين المماليك الذين تصدوا للتتار وللحملات الصليبية وقاتلوا الغزاة، وحققوا الانتصارات.. إلا أنه تفوق عليهم بانشائه لتلك المدرسة الإسلامية التى لا تزال باقية حتى يومنا هذا رغم مضى قرابة سبعة قرون..

إنها مدرسة السلطان حسن التى تطل على ميدان القلعة..

وهى مدرسة تؤدى فيها الشعائر الدينية إلى جانب تدريس الفقة الإسلامى للمذاهب الأربعة.. وتضم مساكن للطلبة..

وهى تعد أول مدينة جامعية فى العالم..

ومع أن تصميم البناء يغلب عليه طابع المدرسة، مع وجود مساكن للطلبة إلا أن هناك من يسميه جامعا باعتبار ما كان للجامع قديما من دور فى التدريس إلى جانب أداء الشعائر الدينية مثل الجامع الأزهر..

وكل المؤرخين والرحالة والمستشرقين الذين شاهدوا هذا «الجامع ـ المدرسة» قالوا انه من أعظم ما شيد فى التاريخ الإسلامى من مبان، وأنه لا يزال، وبعد قرابة سبعة قرون، عملاق العمارة الإسلامية وصرحها الشامخ.

وقال المقريزى: أنه لا يعرف فى بلاد الإسلام معبدا من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع.. وقبته لم يبن مثلها فى ديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن..

ويذكر جومار فى كتاب وصف مصر أن جامع السلطان حسن من أجمل مبانى القاهرة والإسلام.. وأنه يستحق أن يكون فى المرتبة الأولى من مراتب العمارة العربية، بفضل قبته العالية وارتفاع مئذنته، وعظيم اتساعه وفخامته وكثرة زخارفه التى تكسو الأرض والجدران والأبواب..

وقال عنه المصور العالمى لينوار: انه يشرف على القاهرة كلها، ويعد أسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية، ومساحته رحبة عظيمة، وهو يعتبر أجمل جامع فى الشرق كله بلا نزاع..

ووصفه المؤرخ ابن تغرى بردى فقال : انه من عجائب الدنيا.. وانه جامع ومدرسة.. وهو أحسن بناء شيد فى الإسلام..

وقال عنه الرحالة المغربى «الورثيلانى» الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى أنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد، ولا مثيل له فخامة البناء وارتفاعه واحكامه واتساع حناياه.. فالرياح تصفق بأبوابه فى أيام الشتاء كما تفعل فى شواهق الجبال..

ويصف المقريزى الجامع من الداخل فيقول : ان بهذا الجامع عجائب من البنيان.. منها أن ذراع إيوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها، ويقال انه اكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن فى العراق.. ومنها القبة العظيمة التى لا مثيل لها فى البلاد الإسلامية.. ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له.. ومنها البوابة العظيمة.. والمدارس الأربع التى يضمها..

ومساحة الجامع ٧٩٠٦ أمتار مربعة، وهو ما يقرب من فدانين..

والمدارس الأربع التى يضمها هى لتعليم المذاهب الأربعة . الشافعى والمالكى والحنفى والحنبلى..

وكل مدرسة قائمة بذاتها..

وكتب على كل باب من أبوابها أن الذى أمر بانشائها هو السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر حسن بن مولانا الملك الناصر محمد بن قلاوون من شهور سنة ٧٦٤ هجرية..

وفى جانب من المدرسة، بنى السلطان حسن لنفسه مقبرة

وأقام فوقها قبة تعد من أعلى القباب، فارتفاعها يصل إلى ٤٨ مترا، وهى زاخرة بألوان من النقوش والزخارف الجميلة..

●●●

وقد ترك السلطان حسن «وقفيتين» توضحان كيف كان نظام التدريس فى المدارس الأربع التى تضمها المدرسة الكبرى، وأوجه الرعاية التى وفرها للطلاب وشيوخهم الأساتذة..

ومن قراءة الوقفيتين يتبين أن السلطان قد جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب.. ورتب لكل شيخ ثلثمائة درهم فى الشهر ولكل معيد مائة درهم، وخصص لطلبة كل مذهب من المذاهب الأربعة أربعة آلاف درهم..

ورتب عشرين درهما زيادة للطالب الذى يقوم بدور «النقيب» على مجموعة من الطلبة، وعشرة دراهم زيادة للطالب الذى مهمته أن يدعو للسلطان عقب كل قراءة للقرآن، وعشرة دراهم زيادة للطالب الذى يقوم بعمل كشف «الغياب والحضور»..

ورتب مدرسا لكل كتاب وتفسيره وجعل له فى الشهر ثلثمائة درهم، ومدرسا للحديث النبوى وجعل له ثلثمائة درهم.. ورتب لقاضى القضاة «مدة حياته» فى كل شهر ثلثمائة درهم تنتقل من بعده لقاضى القضاة الذى يليه.. ورتب مادحا يمدح الرسول ﷺ بعد صلاة الجمعة ثم يدعو للسلطان ولوالديه ولذريته ولجميع المسلمين.. ورتب عالما للقراءات السبع وحافظا لكتاب الله لتحفيظ الناس القرآن، ومؤذنين من أصحاب الأصوات الحسنة، وأربعة ائمة للصلاة بالمدارس الأربع..

ورتب ستين من القراء للقرآن الكريم.. يتناوبون القراءة ليلا ونهارا طوال الشهر بالقبة التى سيدفن بها.. ورتب موظفا للمكتبة ورجلين لتنظيف «المزيرة».

وجعل بالمدرسة « مكتبين بمؤدبين وعريفين لتعليم مائة يتيم».

واهتم السلطان حسن بالناحية الصحية.. فرتب «حكيمين» احدهما متخصص بمعالجة الأبدان والآخر عارف بصناعة الكحل «أى خاص بالعيون» كما عين مع الطبيبين جراحا..

وقرر أن يصرف فى كل ليلة جمعة خمسة قناطير من اللحم الضانى وثمن عشرين قنطارا من الخبز والقرصة غير الأرز والعسل والحبوب وحب الرمان والأدهان والحطب وأجرة من يقوم بالطبخ..

وأن يصرف كل سنة قيمة ألف قميص والف طاقية والف مداس توزع على الطلبة وارباب الوظائف..

ويذكر المؤرخون أن السلطان حسن قد انفق الكثير من الأموال على انشاء هذه المدرسة ونسب إليه أنه قال : لولا خوفى من أن يقال ان ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه..

●●●

لكن السلطان حسن الذى اقام هذا الصرح الشامخ من صروح العمارة الإسلامية فى القاهرة.. كانت نهايته غامضة ولا زالت لغزا حتى الآن..

كانت صراعات المماليك من حول السلطان حسن قد عادت لاكتساب النفوذ..

وعلم السلطان أن الأمير « يلبغا» ينتقد أعماله ويمهد لمؤامره..

وأخذ السلطان يخطط للتخلص من الأمير..

وكانت الخطة التى وضعها هى الخروج فى رحلة صيد وأن يصحبه فى هذه الرحلة بعض رجاله الأشداء.. وأن يتم القبض

على الأمير «يلبغا» خلال هذه الرحلة..

وعلم الأمير «يلبغا» بالخطة التى وضعها السلطان للقبض عليه.. فاستعد هو الآخر للمواجهة.. واستدعى بعض انصاره ليكونوا إلى جانبه..

وخرج الجميع فى رحلة الصيد..

السلطان وأعوانه.

والأمير وأعوانه.

وبدأت المواجهة عندما أعطى السلطان الإشارة لأعوانه للقبض على الأمير.

ودارت المعركة بين انصار السلطان وانصار الأمير..

وسقط الكثيرون من انصار السلطان، فادرك أن الدائرة ستدور عليه.. واضطر للهرب..

عاد السلطان إلى القلعة..

واستمر الأمير وانصاره فى مطاردة السلطان.. داخل القلعة..

ولم يجد السلطان القوة التى يواجه بها الأمير وأنصاره ففكر فى الهرب ليلا من القلعة.. وأن يذهب إلى الشام..

وقيل انه تخفى فى ملابس الأعراب، ونزل من القلعة عند الفجر.. واختفى..

وقيل ان انصار الأمير امسكوا به وقتلوه..

وقيل انهم قبضوا عليه وسلموه للأمير فقتله.. ولكن اين ذهبت الجثة؟ هذا هو السؤال بل هذا هو اللغز!. وتعددت الأقاويل.

وكان أغربها من أن الأمير «يلبغا» كان حقده على السلطان حسن كبيرا، ولم يجد ما يشفى غليله منه سوى أن يضع جثته تحت عتبة بيته لكى يطأه بقدميه عندما يخرج أو يعود، وعندما يهم بركوب فرسه!.

وكان عمر السلطان حسن يوم اختفائه ثلاثين سنة وبضعة أشهر!

جارية السلطان نجم الدين

التى أصبحت ملكة المسلمين !



١٢

■ رحلة أم خليل التى لقبوها بعصمة الدنيا والدين ..

■ على المنابر دعا لها الخطباء .. وهى التى أرسلت كسوة الكعبة فى زفة !

■ حاربت الصليبيين .. وأسرت الملك لويس .. ولم تطلق سراحه إلا بعد دفع الفدية

كانت واحدة من جوارى السلطان نجم الدين أيوب، الذى يعتبره المؤرخون من أعظم السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين، وكانوا يلقبونه بالملك الصالح.

ثم أصبحت جارية السلطان، أول ملكة فى تاريخ المسلمين!

وعلى المنابر وقف الخطباء يدعون لها بالتوفيق والسداد باعتبارها:

ملكة المسلمين .

وصاحبة الستر الرفيع.

وأم خليل أمير المؤمنين.

وبهذه الألقاب الثلاثة أصدرت المراسيم.

وقد توقف المؤرخون عندها طويلا.

وصارت هى الرمز والمثال لبطولة المرأة العربية، عندما خرجت مع زوجها السلطان لقتال الحملة الصليبية، ولما مات السلطان وسط جنوده فى ساحة المعركة، تولت القيادة من بعده، حتى تحقق النصر.

وأصبحت قصة تروى..

والقصة طويلة ومثيرة..

إنها قصة الجارية التى اشتهرت باسم شجرة الدر.

● ● ●

رصد المؤرخون والباحثون خطوات البداية لصاحبة الستر الرفيع، ملكة المسلمين، أم خليل أمير المؤمنين.

وقالوا إنها كانت جارية من جوارى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، سلطان مصر والشام، وإنه قربها إليه، وصارت زوجته وأم ولده خليل، فارتفعت منزلتها ومكانتها.

وقد توفى ابنهما خليل وهو صغير، لكن شجرة الدر عاشت حياتها تنتسب إلى زوجها السلطان وولدها خليل.

وقد قاست شجرة الدر الكثير من سيدها ومولاها السلطان نجم الدين، ودخلت معه السجن عندما سجن بقلعة الكرك فى فلسطين، وجاءت معه إلى القاهرة حين صار سلطانا، ودخل ركبهما من الباب الشرقى، وأخذ يشق طريقه فى شارع المعز لدين الله الفاطمى، وسط الاعلام وزحام الناس الذين خرجوا لرؤية السلطان وزوجته شجرة الدر، ثم خرج الركب من باب زويلة فى طريقه إلى القلعة.

ويذكر المؤرخون ان شجرة الدر هى التى أشارت على السلطان الصالح نجم الدين أيوب ببناء قلعة أخرى فى جزيرة الروضة، لتكون مقرا له، وليكون آمنا فيها، وبعيدا عن قلعة الجبل التى تدور فيها المؤامرات والدسائس.

وأخذ السلطان برأى شجرة الدر.

وبنى قلعة الروضة.

وكانت هى أيضا التى أشارت عليه بشراء مماليك أقوياء يدربهم وينشئهم على حبه وطاعته، ويطمئن بهم على حياته وملكه.. ويعدهم ليوم النزال والتصدى لجيش الحملة الصليبية

وكانت هى أيضا التى أشفقت عليه يوم قرر السفر إلى المنصورة ليكون على مقربة من جنوده ومن المعركة مع جيش الحملة الصليبية.

ففى عهد السلطان الصالح نجم الدين هوجمت مصر من الصليبيين.. كان يقود الحملة لويس التاسع، ملك فرنسا.. ونجحت الحملة فى الاستيلاء على دمياط.. وبدأت تعد العدة لتواصل زحفها إلى داخل البلاد.

كان السلطان الصالح نجم الدين وقتها مريضا.. لكنه أصر على الانتقال إلى المنصورة، للتصدى للحملة الصليبية وإيقاف تقدمها والصدام معها، ودحرها.

ووصل إلى المنصورة.. وأخذ يعد للمعركة.

لم يكن السلطان الصالح نجم الدين وحده.. كانت إلى جانبه زوجته شجرة الدر.. التى كان يرجع إليها فى تدبير شئون الدولة، لما اتصفت به من العقل والحزم وسداد الرأى.

واشتد المرض على السلطان.

وفى ليلة النصف من شعبان.. والمساجد تفيض بالمصلين.. والتكبيرات تتعالى من فوق المآذن.. والناس يضجون بالدعاء إلى الله، يرجون رحمته، ويسألونه أن ينصر جيش الإسلام، وأن يهزم الأعداء.

فى تلك الليلة.. فاضت روح السلطان الصالح نجم الدين.

وكان الأعداء يتأهبون للزحف إلى المنصورة..

وأدركت شجرة الدر أن إعلان وفاة السلطان فى هذا الوقت الحرج سوف يؤدى إلى إشاعة الفوضى، والتأثير على معنويات الجنود، ووقوع الهزيمة، وضياع البلاد.

ولهذا انتهت إلى قرار.. وهو تكتم موت السلطان.

واستدعت الطبيب المعالج.. ليتولى تغسيله وتكفينه.. ثم استدعت ثلاثة من خلصائها وأسرت إليهم بالنبأ.. وتعاونوا جميعا على نقل جثمان السلطان سرا فى مركب نيلية من المنصورة إلى قلعة الروضة بالقاهرة.. ووضعه فى قاعة من قاعات تلك القلعة.

●●●

ولم يحس أحد بما وقع .وظلت الأمور تسير سيرا طبيعيا كما لو كان السلطان حيا.

فالطعام يحمل إليه فى مواعيده.

والطبيب يعوده صباح مساء.

والأوامر الرسمية تصدر إلى الوزراء والقواد.

والتقارير ترفع إليه.. والرسائل تخرج من عنده ممهورة بتوقيعه.

وكان الذى يقلد توقيعه على نحو متقن خادم اسمه «صواب السهيلى».. وجاز ذلك على كل الذين وصلتهم مراسيم السلطان فى أمر من أمور الدولة.

وهكذا سارت الأمور كما رسمتها شجرة الدر..

لم يتغير شىء.. وكل ما يقال هو أن السلطان مريض. وأن صحته تتحسن يوما بعد يوم!

وتفرغت شجرة الدر لقيادة المعركة مع الصليبيين، وأخذت تضع الخطط.. وتشجع الجنود، وتدفع بالخطباء إلى المنابر.. وترسل الأخبار إلى مختلف أنحاء البلاد، وتتلقى الأنباء، وتدفع بالفدائيين إلى مواجهة الأعداء.

وبفضل عزيمتها ، وثباتها، وروحها، نشط الناس، وتحركوا للجهاد، وأخذوا يهاجمون جيش الفرنج تحت ستار الظلام وفى وضح النهار.. حتى فى يوم العيد، دارت المعارك بعد صلاة العيد.

وكانت شجرة الدر تبعث بالأسرى أفواجا إلى القاهرة، فيطاف بهم فى الشوارع والحوارى ليراهم الناس فتتعالى التكبيرات، ويتوجه الكثيرون إلى المنصورة للجهاد، وترتفع الأيدى بالدعاء إلى الله أن ينصر دينه، ويهزم أعداءه.

● واستحضرت شجرة الدر أمراء الجيش وزعماء المماليك إلى منزل السلطان بالمنصورة.. وأعلنت فيهم خبر مرض السلطان وتكليفهم بأن يأخذوا البيعة لولى عهده، وهو ابنه «تورنشاه» الذى كان غائبا عن القاهرة.. وبعثت رسولاً إلى الشام يستدعيه للحضور على عجل.

ووصل ولى العهد تورنشاه إلى مصر، وتوجه إلى المنصورة.

ويومها أعلنت شجرة الدر عن موت السلطان.. وكان قد مضى أكثر من شهرين على وفاته.

وأعلنت أيضا عن تولية تورنشاه زمام الأمور.

لكنها لم تخل يدها من الأمر.. وظلت قابضة على الأمور.. إذ لم يكن لهذا السلطان الجديد «تورنشاه» من هم سوى شهواته.

وكان همها هو إنقاذ الوطن ، وطرد الأعداء.

● ووقعت المعركة الحاسمة.. ولم يجد الملك لويس غير الفرار.. للنجاة بحياته.. والتجأ إلى قرية «منية أبى عبدالله» على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط، بين «فارسكور» و«شرمساح» تاركا وراءه عشرات الآلاف من الضحايا.

وأسر الملك لويس .. واقتيد إلى دار «ابن لقمان» ذليلا، يحرسه «الطواشى صبيح».

● وبعد أن تحقق النصر.. شرعت شجرة الدر فى دفن زوجها السلطان الصالح نجم الدين.. وخرج جثمانه من قلعة الروضة فى تابوت.. وكان يوم جمعة، وتمت الصلاة عليه بعد صلاة الجمعة..

وكان الأمراء ورجال الدولة يلبسون البياض حزنا عليه.. وقطع المماليك شعور رؤوسهم، وساروا به إلى القبة الجميلة التى أنشأتها له شجرة الدر فدفن فيها.

وخرج الناس لوداع السلطان.

وأغلقت الأسواق وأقيم عزاء للسلطان فى منطقة بين القصرين القريبة من القبة التي دفن تحتها.

وكان العزاء بالدفوف واستمر ثلاثة أيام.

وعند القبر وضعت شجرة الدر سناجق السلطان - أى راياته وبقجته، وقوسه.. ورتبت له عددا من القراء، وحددت لهم المكافآت.

●●●

كانت القبة التى أنشأتها شجرة الدر، فوق ضريح زوجها السلطان نجم الدين أيوب من أجمل القباب، وقد عرفت بالقبة الصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

وعلى هذه القبة سجلت شجرة الدر جهاد زوجها السلطان الصالح، والنصر العظيم الذى حققه، والهزيمة الكبرى التى لحقت بجيش الغزاة الصليبيين.

تقول السطور المضيئة التى سجلتها شجرة الدر فوق القبة الجميلة:

« بسم الله الرحمن الرحيم.. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين.. هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح. السيد العالم العادل، المجاهد المرابط المثاغر، نجم الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين سيد ملوك المجاهدين، وارث الملك عن آبائه الأكرمين، أبى الفتح أيوب ابن السلطان الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن

أبى بكر بن أيوب.. توفى إلى رحمة الله تعالى وهو بمنزله بالمنصورة تجاه الأفرنج المخذولين.. مصافحا للصفاح بنحره.. مواجها للكفاح بوجهه وصدره.. آملا ثواب الله بمرابطته واجتهاده.. عاملا بقوله تعالى: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾.. أرقده الله الجنة العالية، وأورده أنهارها الجارية.. وذلك فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة هجرية - ١٢٤٩ ميلادية.

●●●

بعد دفن السلطان نجم الدين أيوب ، تتابعت الأحداث على نحو مثير.

فالسلطان الجديد «تورنشاه» ابن السلطان نجم الدين، والذى أتت به شجرة الدر وعملت على أن يتولى السلطنة، لم يكن يهتم بغير شهواته وملذاته.

وسرعان ما أغضب الأمراء، وملأ قلوبهم حقدا عليه، فطاردوه، وحاولوا قتله، وضربه أحدهم بالسيف فقطع أصابعه، وهرب منهم وألقى بنفسه فى النيل محاولا الهرب، فمات غريقا.

واجتمع الأمراء ورجال الدولة، واتفقوا على أن تتولى شجرة الدر السلطة، وأن تكون هى السلطانة!

وهكذا أصبحت شجرة الدر تحمل ثلاثة ألقاب هى:

● صاحبة الستر الرفيع.

● وملكة المسلمين.

● وأم خليل أمير المؤمنين.

وكانت هذه الألقاب الثلاثة من بين عديد من الألقاب التى خلعت عليها رسميا، وصدرت بها المراسيم.

وهكذا صارت شجرة الدر هى «الرمز» و«المثال» لبطولة المرأة العربية فى العصور الوسطى، ولقدرتها على تصريف الأمور فى أحرج المواقف.

●●●

ونأتى إلى الملك الأسير.

الملك لويس ملك فرنسا الذى كان يتولى قيادة جيش الغزاة الصليبيين، والذى وضع فى دار ابن لقمان بالمنصورة بعد وقوعه فى الأسر.

أخذت «السلطانة» شجرة الدر تفكر فى مصير الملك لويس، ومصير أسرى الحملة الصليبية.. وكانت زوجة الملك لويس قد بعثت رسالة إلى شجرة الدر تستعطفها، فى إطلاق سراح زوجها.. فأذنت شجرة الدر بأن يرسل الفرنج رسلا للمفاوضة.. وطلبت فدية لاطلاق سراح ملك فرنسا.. قدرها أربعمائة ألف دينار.. لكنهم عجزوا عن دفع الفدية.. فقبلت شجرة الدر أن يدفعوا نصفها، وأن يؤجلوا النصف الآخر.. وأخذت زوجة الملك لويس تجمع المال لتقديم الفدية المطلوبة.

وأطلق سراح الملك لويس.. وبقية الأسرى.. وانسحب بقية جيش الصليبيين من دمياط.

وهكذا اندحرت الحملة الصليبية.. وراح المداحون ينشدون فى طول البلاد وعرضها أناشيد البطولة، وقصص الفرسان الشجعان الذين تصدوا للغزاة.

وقد اكتسبت شجرة الدر رضاء الشعب، وأغدقت الأموال على المماليك لإرضائهم.

وأصدرت دنانير تحمل أحد ألقابها وهو «أم خليل» ولا يوجد من دنانير أم خليل سوى دينارين فقط، بالإضافة إلى مجموعة من الدراهم.

والديناران أحدهما محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن.. أما الآخر فهو فى المتحف الإسلامى بالقاهرة.

● لكن الأمر لم يستتب طويلا لصاحبة الستر الرفيع، ملكة المسلمين.. شجرة الدر.

فقد أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله من بغداد، إلى أمراء مصر وقوادها يؤنبهم على اختيار «امرأة» لتكون سلطانة عليهم. ويسألهم فى سخرية: إذا لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطنة فأخبرونا نرسل لكم رجلا!

ويذكر المؤرخون ان الخليفة العباسى المستعصم بالله.. لم يبعث برسالة إلى أمراء مصر وقوادها بوازع من ضميره.. أو بدافع دينى.. وإنما فعل ذلك نتيجة الدسائس التى قامت بها «الجوارى» اللاتى كن يحقدن على شجرة الدر.. ويتوجسن منها بعد أن صارت «سلطانة» وكانت الجوارى فى مصر قد استخدمت «الجوارى فى بغداد» للتأثير على الخليفة العباسى، وإيغار صدره ضد شجرة الدر.. التى حفظت للعروبة وللإسلام عزته وكرامته.. ونجحت الدسيسة، وفعلت فعلها بتلك الرسالة التى أرسلها إلى أمراء مصر وقوادها.

● وأخذت شجرة الدر تفكر فى الأمر.. كيف تواجه هذه المشكلة، وتقطع الطريق على الطامعين فى الاستيلاء على السلطة؟

وأشار عليها القضاة بأن تتوج أحد أمراء المماليك، ليتولى هو السلطنة.

وانتهت شجرة الدر إلى قرار..وهو أن تختار الرجل الذى لا يسلبها دورها فى تدبير شئون الدولة.. ولو من وراء ستار.

واختارت أحد أمراء المماليك، وهو عز الدين أيبك التركمانى.

وقررت أن تتزوجه.. وأن تعلنه سلطانا على مصر.

وهكذا كان..

ونسى عز الدين أيبك التركمانى زوجته الأخرى واسمها «أم على» وكان له منها أولاد كبار.

وتفرغ لشجرة الدر.. ولدوره الجديد..

وكان عز الدين أيبك مفتونا بشجرة الدر، منذ أن كان خادما لزوجها السلطان الصالح نجم الدين!

● لكن الزواج من عز الدين أيبك ، وإعلانه سلطانا.. لم يحل المشكلة، ولم يقض على الفتن والدسائس من جانب الجوارى.

وأخذ المرجفون يتحركون.. وينفثون السموم والإشاعات.. والأراجيف.. لتأليب الناس.

كيف تتزوج شجرة الدر بخادم السلطان الصالح نجم الدين أيوب.. وتعلنه سلطانا؟

كيف ينتقل حكم البلاد إلى مملوك.. وبنو أيوب كثيرون؟

وكان المماليك المناوئون لعز الدين أيبك التركمانى يسخرون منه، ويشيعون بأنه لعبة فى يد شجرة الدر، لا حول له ولا قوة، سوى توقيع المراسيم وإلقاء الأوامر التى تصدرها شجرة الدر.

واستطاعت الجوارى أن توقع بعز الدين أيبك فى شراكها.. وأن يوغرن صدره ضد شجرة الدر.. وقدمن له رسالة قيل إنها مرسلة من شجرة الدر إلى «صاحب حلب» تعده بملك مصر وأن تتزوجه إذا قتل عز الدين أيبك!

واقترحت الجوارى أن يقوم عز الدين أيبك بقتل شجرة الدر.

لكنه خشى ذلك، لعلمه أن الجنود يحبونها، وأن المماليك الصالحية - أى الذين هم أصلا من اتباع زوجها السلطان الصالح - يحمونها.

وعادت الجوارى يقترحن عليه أن يعمل على إذلالها.. بالزواج

من أخرى.. واخترن له ابنة بدر الدين لؤلؤ.

واقتنع عز الدين أيبك بالفكرة.. وأرسل إلى بدر الدين لؤلؤ.. يخطب ابنته.

● وعلمت شجرة الدر بما يدبره عز الدين أيبك.. وأنه سوف يبعدها عن القلعة عندما تأتى العروس الجديدة.

وقررت شجرة الدر أن تقتله.. وقتلته فعلاً..

كيف قتلته؟ لتلك حكاية كما فى حكايات ألف ليلة وليلة.. تبدأ باستمالته وإغرائه حتى يطمئن، ويجلسان ويتناجيان كما العشاق الذين برح بهم الوجد.. ويمضى الليل.. وعند الفجر يذهب إلى الحمام.. وتدق شجرة الدر بيديها الدقات المتفق عليها، فيحضر حراسها، ويقتلونه.

وفى الصباح أعلنت شجرة الدر عن موته.. وترددت الأقاويل بأن عز الدين أيبك.. الذى تزوجته شجرة الدر، وأعلنته سلطانا قد قتل.. وأن التى قتلته هى شجرة الدر.

وصعد المماليك الموالون لعز الدين أيبك إلى القلعة غاضبين.. للقبض على شجرة الدر، والفتك بها.

لكن « أم على » زوجة عز الدين أيبك الأولى، كانت أسرع منهم.. فبعد أن قبض ابنها على شجرة الدر.. أمرت الجنود بإحضارها.. فجاءوا بها.. وتركتها لبعض الخدم والجوارى.. فانهالوا عليها «بالقباقيب» حتى ماتت!! هكذا قال المؤرخون.. بالقباقيب!!

وألقوها من فوق القلعة.

● ودفنت شجرة الدر فى ضريحها.. تحت القبة التى كانت قد أقامتها لنفسها فى شارع الخليفة.. واختارت موقعها أمام ضريح السيدة رقية.

وعلى جدران القبة.. وفوق «افريز» من الخشب.. هناك نص يشير إلى شجرة الدر.. ويتضمن بعض ألقابها، والإشادة بها، وبزوجها السلطان الصالح نجم الدين.

يقول النص :«بسم الله الرحمن الرحيم.. عز الستر الرفيع، والحجاب المنيع، عصمة الدنيا والدين، والدة الملك المنصور خليل ابن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين، قدس الله روحه، ونور ضريحه.. التى خطبت الأقلام بمناقبها على المنابر.. وشهدت لها المغافر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى.. وأصبحت شموس المملكة بها طالعة.. وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة.. وأعز الله أنصارها، وضاعف اقتدارها، وأعلى منارها، وجعل النيرين فى العلا الأعلى خدامها.. ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام، بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام».

وهناك أيضا آيات من سورة الفتح مثل: ﴿هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾.

وقد قام أحد الأجانب بسرقة جزء من «الافريز» الخشبى الذى يحمل بعض الكتابات، والذى كان على يمين المحراب، داخل القبة، وضبط وهو يحاول تصديره إلى الخارج.

وقبة شجرة الدر مبنية من «الآجر».. وبجدرانها جذوع نخيل، وهى تشبه ضريح الخلفاء من حيث الزخارف الخارجية.. ولكنها أكبر.. وأبوابها مستطيلة.

ويذكر المؤرخون لفن العمارة الإسلامية أن قبة شجرة الدر أو ضريحها يتوافر فيه مميزات معمارية تعتبر الأولى من نوعها.. وأن المحراب المقام داخل القبة له أهمية خاصة، فهو أول محراب

فى مصر يحتوى على «فسيفساء».. وتتكون الفسيفساء من إطار يحيط بنصف القبة عبارة عن شريط مضفر.. وفى الوسط شجرة ذات فروع متشعبة على أرضية ذهبية.. والألوان هى الأخضر والأبيض والأحمر، وكل الثمار تحتوى على «صدف» وعندما تسطع الشمس وتسقط أشعتها على إطار الفسيفساء تبدو روعة المنظر.

ويذكر المؤرخون أيضا أنه كان هناك تابوت خشبى فى وسط الضريح.. ولكن هذا التابوت اختفى خلال الثلاثين سنة الماضية.. ولم يعد له وجود.

●●●

وإلى جانب دورها وجهادها فى التصدى للحملة الصليبية، يذكر التاريخ لشجرة الدر أنها كانت أول من أرسل كسوة الكعبة المشرفة بالاحتفالات التى عرفت فى مصر باسم «زفة المحمل» والتى كان يطوف فيها جمل المحمل بالقاهرة وفوقه الهودج الذى يضم كسوة الكعبة المشرفة.

أما السلطان الصالح نجم الدين أيوب، فالتاريخ يحفظ له الكثير إلى جانب جهاده وموته وسط جنوده وهو يتصدى للغزاة.

كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو آخر سلاطين الدولة الأيوبية.

والمؤرخون أمثال ابن تغرى بردى يعتبرونه أعظم ملوك الأيوبيين بعد صلاح الدين فارس العصور الوسطى.

ويذكر المقريزى أن السلطان نجم الدين أيوب، قام بأعباء المملكة خير قيام، واهتم بعمارة أرض مصر، وأخضع عربان الصعيد لسلطة الدولة.

وهو الذى أنشأ «المدرسة الصالحية» بشارع المعز، وهى أول

مدرسة فى مصر لتدريس المذاهب الأربعة.

ومن روائع التحف المعدنية الأثرية التى تحمل اسم السلطان نجم الدين أيوب، والمحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة «طشت» مصنوع من النحاس ومكفت بالفضة، ويزدان بصور لموسيقيين، وصور حيوانات، وصور للكواكب السماوية.

وفى هذا «الطشت» أيضا توجد كتابة منقوشة بخط النسخ تقول: عز لمولانا السلطان الملك الصالح، العالم، العادل، المنصور، نجم الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين أيوب.

وهناك «طشت» آخر يحمل اسم السلطان نجم الدين أيوب، محفوظ فى متحف «فرير» بواشنطن، ويتمتع بشهرة واسعة بسبب زخارفه ونقوشه الجميلة التى تثير انتباه الباحثين للمستوى الراقى الذى بلغته الفنون فى ذلك العصر الذى مضى عليه أكثر من سبعة قرون.

من حكايات سبايا الحرب:

بنت كسرى ملك الفرس التى اختارت سيدنا الحسين



١٣

■ كان اسمها ملكة النساء .. وانجبت له زين العابدين

■ زين العابدين كان يشترى الرقيق ويبقيه لمدة محددة ثم يطلقه حرا

■ عندما قال زين العابدين للجارية : اذهبى فأنت حرة لوجه الله

فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد فارس.

وقام الجيش الإسلامى الزاحف إلى هناك بأسر الكثيرين.

كان من بين الأسرى العديد من النساء السبايا.

وكان من بين النساء السبايا، ثلاثة من بنات كسرى ملك الفرس.

وقام قائد الجيش الإسلامى بإرسال بنات كسرى الثلاثة ضمن بقية الأسرى والسبايا، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة.

وجرى بيع السبايا عملا بقانون العصر ولغته التى هى لغة الحرب فى كل زمان ومكان.

ولم يبق سوى بنات كسرى الثلاث.

ويذكر الرواة ان عمر بن الخطاب أمر المنادى أن ينادى عليهن.. وأن يزيل نقابهن حتى يرى المشترون وجوههن فيزيدون فى الثمن الذى سيذهب إلى بيت المال.

ولكن بنات كسرى امتنعن عن كشف النقاب وزغدن المنادى فى صدره عندما حاول ذلك.

وتدخل الإمام على بن أبى طالب .. وقال لعمر بن الخطاب:

يا أمير المؤمنين.. إن بنات الملوك لا يعـاملن كغيرهن من بنات السوقة.

وأشار الإمام على بأن يقوّمن وأن يغالى فى أثمانهن.. ثم يترك لهن الخيار.. فتختار كل واحدة منهن من تشاء من الرجال.

ووافق عمر بن الخطاب.

وقام الإمام على بتقويمهن.. وتحديد الثمن.

وجاء دور بنات كسرى فى اختيار الرجال.

فاختارت الأولى عبد الله بن عمر بن الخطاب!

واختارت الثانية محمد بن أبى بكر الصديق!

أما الثالثة فقـيل إنها غضت من بصرها، ومشت بضع خطوات على استحياء.. ووضعت يدها على رأس فتى.

وكان هذا الفتى هو الإمام الحسين.

وكان الناظر إلـى هذ الفتى يتذكـر النبى ﷺ .. منذ أول وهلة.. فهو أشبه الناس به خلقا وخلقا.

«كـان أبيض الوجه.. مـشربا بحـمـرة.. أدعج العينين.. سـهل الخديـن.. كث اللحيـة.. بعيـد ما بين المنكبـين.. ليس بالطويل ولا بالقصير.. مليحا لم ير أحسن وجها منه».

وكان هذا الفتى هو الإمام الحسين.

وكانت بنت كسرى التى اختارتـه، اسمها «شاه زنان» ومعناها بالفارسية «ملكة النسـاء».

وقيل إن الإمام على قـد سر فى ذلك اليوم.. واستبشـر خيرا.. وقال لابنه الحسين:

ستلدن لك خير أهل الأرض..

وقد رزق الإمام الحسين من بنت كسرى «شاه زنان» أو «ملكة النساء».. بابنه الذى قال عنه الإمام على بأنه خير أهل الأرض.

وكان هذا الابن هو : على زين العابدين!

●●●

وقد ولد على زين العابدين بالمدينة المنورة فى اليوم الخامس من شعبان سنة ٣٨ هجرية، أيام خلافة جده الإمام علي.

ولم تعش أمه طويلا بعد ولادته.. فقد مرضت وتوفيت بحمى النفاس.

ولم يعرف على زين العابدين أن أمه قد توفيت إلا بعد سنوات.. فقد احتضنته واعتنت به وقامت على تربيته ورعايته ـ مولاة له ـ وكان يعتقد أنها أمه.. وكان يناديها على أنها كذلك، وكانت هى أيضا تناديه باعتباره ابنها.

وفى مسجد الرسول سمع على زين العابدين القرآن والحديث والفقه.. وجلس إلى أبيه الإمام الحسين، وإلى غيره من صحابة رسول الله والتابعين.. ونقل عنهم وتعلم منهم وسمع أيضا وتعلم من أمهات المؤمنين.. من صفية وعائشة وأم سلمة.

وصعد طريق الأئمة مسرعا، فكان العلماء يرجعون إليه فى الرأى والاجتهاد.. وفى التوثيق والتصحيح لكثرة ما سمع وما حفظ وفكر واستنبط.

●●●

وكان على زين العابدين أحد شهود فاجعة كربلاء.. وكان غلاما عندما وقعت تلك المذبحة.. وهو الوحيد من ذرية الإمام الحسين الذى نجا من القتل فى ذلك اليوم.. وقد دخلوا خيمته بعد استشهاد والده الإمام الحسين ليقتلوه.. ولكن عمته السيدة زينب تصدت لهم.. واحتضنته.. وقالت: والله لا يقتل حتى أقتل قبله.

فتركوه..

ورغم مرضه فقد طلب على زين العابدين من عمته السيدة

زينب أن تأتيه بسيفه وعصاه ليدافع عن أبيه ويموت قبله.. كان يريد العصا ليتوكأ عليها والسيف ليواجه به.. ولكن عمته السيدة زينب كانت تدرك علته ولم تمكنه من ذلك.. وكانت تحتفظ له بقليل من الماء لمرضه في الوقت الذى استشهد فيه كل الرجال وهم عطشى.

وحين ساقوا على زين العابدين ضمن الأسرى والسبايا بعد مذبحة كربلاء إلى الكوفة.. وادخلوه مقيدا بالاغلال على الطاغية ابن زياد.. قاتل الإمام الحسين.

سأله ابن زياد:

ما اسمك؟

ورد على زين العابدين : أنا على بن الحسين، وقال ابن زياد فى حدة وثورة:

أو لم يقتل الله على بن الحسين؟

ورد على زين العابدين : كان لى أخ يسمى «عليا» قتله الناس.

فقال ابن زياد:

الله قتله.

ورد على زين العابدين: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾.. ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ﴾.

فقال ابن زياد وقد اشتد به الغضب:

وبك جرأة على جوابى! أنت والله منهم.

ثم أمر بقتله. ولكن السيدة زينب تعلقت به.. واحتضنته.. وصاحت: يا ابن زياد.. حسبك منا.. أما رويت من دمائنا؟.. والله لا أفارقه.. فإن قتلته فاقتلنى معه.

وتراجع ابن زياد.. وهو مشدوه.. وقال: دعوه لها. فما أعجب الرحم!.. إنى لأظنها ودت إنى قتلتها معه.

●●●

ثم جرى ترحيل على زين العابدين ضمن الأسرى والسبايا من الكوفة إلى دمشق.. حيث مقر الخليفة يزيد بن معاوية.

وكان مع الأسرى والسبايا، رأس الإمام الحسين، وبقية رؤوس الشهداء.

وأمام الطاغية يزيد بن معاوية.. وضعت الرؤوس ومعها رأس الإمام الحسين.

وكان يزيد قد دعا حاشيته، وأجلسهم حوله ليروا الرؤوس أيضا وبينها رأس الإمام الحسين.

ودخل على بن زين العابدين مكبلا بالاغلال ومعه بقية الأسرى والسبايا.

وقال يزيد موجها الحديث إلى على زين العابدين:

يا على.. إن أباك قطع رحمي.. وجهل حقى.. ونازعنى سلطاني.. فصنع الله به ما قد رأيت.

فرد على زين العابدين:

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها﴾.

فقال يزيد:

لا والله .. بل : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾.

وقيل أن يزيد عندما سمع بكاء السيدة زينب ورثاءها للحسين، وحملتها عليه وعلى اتباعه.. تأثر واستدعى على زين العابدين.. وأمر بأن تفك أغلاله.. وأجلسه إلى جواره.. وأخذ يلاطفه ويسرى عنه.. وقال له:

لعن الله ابن مرجانة «يقصد ابن زياد الذي ولاه هو على الكوفة، والذى قتل الإمام الحسين إرضاء له وتقربا إليه» والله

لو كنت صاحبت أبيك.. ما سألنى خصلة إلا أعطيته إياها.. ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت.. ولو بهلاك بعض ولدى.. ولكن ماذا ينفع لو وليت؟!.. وقد قضى الله ما رأيت.. فلا يكن فى نفسك شىء مما حدث.. وسلنى حوائجك اقضيها لك.. وإذا ذهبت إلى المدينة.. فكاتبنى بكل ما يعرض لك من أمور.

●●●

ويروى أن يزيد دعا عليا زين العابدين للغداء معه بعد ذلك.. وبعد أن فرغ من الغداء.. طلب منه أن يدخل المسجد وأن يصعد المنبر.. وأن يلقى بالتبعة كلها على ـ ابن مرجانة ـ وأن يبرىء يزيد من دم أبيه الإمام الحسين، حتى يلتف حوله الناس وتألفه القلوب.

فدخل على زين العابدين المسجد وصعد المنبر.. وقال: يا أهل الشام.. من عرفنى فقد عرفنى.. ومن لم يعرفنى.. فأنا اعرفه بنفسى.. أنا على بن الحسين.. أنا ابن البشير النذير.. أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه.. أنا ابن السراج المنير.

ونزل من المنبر ولم يقل شيئا مما أراده يزيد.

وغضب يزيد، واغتاظ من موقفه.. واغلظ له القول.

وقيل أيضا أن يزيد جلس يوما مع على زين العابدين، فى المسجد للصلاة.. فقام المؤذن يؤذن.. وقال:

الله أكبر

فقال على بن زين العابدين الله أكبر

وردد بعده يزيد : الله أكبر

وقال المؤذن :

اشهد أن محمدا رسول الله

فرددها على زين العابدين.. ورددها بعده يزيد.

وقال المؤذن:

اشهد أن محمداً رسول الله..

فرددها على زين العابدين.. ورددها بعده يزيد.

والتفت على زين العابدين إلى يزيد!.. يسأله:

من محمد رسول الله؟

واستغرب يزيد السؤال .. وقال:

هو جدك.

فقال على زين العابدين:

إذا كنت تعلم أنه جدى.. فلم قتلت أولاده؟

ولم يسترح يزيد لهذا الاستدراج.

●●●

وقال الرواة إنه يوم دخل على زين العابدين، مكبلا بالاغلال ومعه الأسرى والسبايا إلى يزيد بن معاوية فى قصر الخلافة بدمشق.. كان فى مجلس يزيد رسول من ملك الروم.. فسأل: من يكون هؤلاء الأسرى والسبايا؟.. فقالوا له: هم نساء الحسين.. وبنات رسول الله.. والذى فى الاغلال .. هوابن الحسين.. وحفيد رسول الله.. فقال متعجبا: إنه يوجد عندنا فى خزانة داخل دير «حافر حمار عيسى بن مريم».. ونحن نحج إليه كل عام..ويأتيه الناس من جميع الأقطار.. يعظمونه.. كما تعظمون الكعبة.. فكيف تفعلون هذا بأهل بيت نبيكم.. وكيف تقتلون الحسين؟

وقيل إن الصحابى أبو برزة كان موجودا يومها، فصاح: لعن الله ابن مرجانة: قتل الحسين.. واشمت بنا أعداء الدين.

وقبل أن يتحرك ركب أهل البيت فى طريقه إلى المدينة المنورة.. أخذ يزيد يتلطف معهم.. فقال لعلى زين العابدين: كاتبنى بكل حاجة تعرض لك اقضيها إن شاء الله.

ثم توجه إلى السيدة زينب محاولا أن يسمع منها كلمة رضا أو امتنان، فلم تفعل.. فاتجه إلى فاطمة بنت الحسين، وقال: هل من حاجة يا ابنة العم؟.. فقالت حاجتنا جميعا إلى الله.. ثم صرفت وجهها عنه.

وأقبل يزيد على ـ النعمان بن بشير ـ الذى يصحب الركب، يوصيه خيرا.

وعندما وصل الركب إلى مشارف المدينة المنورة.. خلعت نساء أهل البيت كل ما كان فى أيديهن من حلى.. وقدمتها للرجل الذى صحب الركب وأحسن معاملتهن.. وقالت السيدة زينب: والله ما معنا ما نصله به إلا حلينا.. واعتذرن لقلة ما يقدمنه له مقابل إحسانه وجميله.

لكن الرجل رد لهن الحلى، معتذرا فى أدب.. وقال: والله لو كنت صنعت ما صنعت، رغبة فى الدنيا وحبا فى المال.. لكان ما قدمتموه يرضينى وزيادة.. ولكنى فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله.. ولقرابتكم من رسول الله.

●●●

لقد تركت فاجعة كربلاء آثارها العميقة.. على نفس وقلب وعقل على زين العابدين .. فلم يعرف بعدها الضحك أو الابتسام.. واستحالت حياته إلى نسك.. وزهد فى كل شىء.

وكانت الصفات والألقاب التى أطلقت عليه هى تجسيد للمعانى التى عاش عليها طوال عمره.. وكانت أهم تلك الصفات والألقاب هى: «السجاد» لكثرة سجوده.. و«زين العابدين» لاستغراقه فى العبادة.

وكان زين العابدين دائم البكاء من خشية الله.

وقيل إنه كان إذا توضأ أصفر لونه.. وارتعد جسمه.. فسألوه:

ولم ذلك ؟

فقال : أتدرون .. بين يدى من سأقف؟

وقيل إنه لم يكن يجد متنفسا له من الكرب.. إلا فى الصلاة والدعاء.. وفى الحج إلى بيت الله.

وكان إذا دخل الحرم.. أخذته الرعدة واصفر لونه.. وراح يبكى.. فكان يبكى كل من يراه.

وانتظر رجل حتى انتهى من بكائه ودعائه.. ثم سأله:

يا ابن رسول الله .. رأيتك على حالتك.. ولك فضائل ثلاث تؤمنك من الخوف.

فرد على زين العابدين:

وما هى هذه الفضائل الثلاث؟

قال الرجل: أولها.. إنك ابن رسول الله.. وثانيها: شفاعة جدك المصطفى ﷺ.. وثالثها : رحمة الله.

فرد على زين العابدين:

أما إنى ابن رسول الله - ﷺ - فلا يؤمننى.. وقد سمعت أن الله تعالى يقول: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ وأما شفاعة جدى.. فإن الله يقول: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وأما رحمة الله فهو تعالى يقول : ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾.

●●●

وإذا كان الرواة قد تحدثوا طويلا عن زهده وورعه وتقواه، وانقطاعه للعبادة.. فقد تحدثوا طويلا أيضا عن حلمه.. وعن تحريره للعبيد، وكيف اعتق اعدادا كبيرة من الموالى والجوارى.

كان يشترى الرقيق ويستخدمه فى عمله.. ويجزل له فى العطاء والأجر.. ويبقيه لمدة محددة ثم يطلقه حراً.. وقبل أن يطلقه كان يقول له: اذهب إلى قبر رسول الله فصل ركعتين.. ثم قل:

اللهم اغفر لعلى بن الحسين.. فإذا ذهبت وفعلت فأنت حر لوجه الله.

تحدثت جارية عنه.. قالت: كنت «مولاة» لزين العابدين.. وذات يوم جلس يتوضأ.. وصببت عليه الماء، فسقط الإبريق من يدى.. فأصاب وجهه رشاش منه.. فرفع رأسه ولم يتكلم.. وتملكنى الخوف.. ولكنى تمالكت نفسى لما كنت أعرف من خلقه وعفوه وصفحه.

فقلت له: إن الله يقول : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾.

فقال زين العابدين.. قد كتمت غيظى.

قلت : ﴿ والعافين عن الناس﴾ .

قال : عفا الله عنك.

قلت : ﴿ والله يحب المحسنين﴾.

قال: اذهبى فأنت حرة لوجه الله.

وتحدث واحد من الموالى.. قال كنت غلاما لزين العابدين وبعثنى يوما فى حاجة له.. فأبطأت.. فضربنى بالسوط ضربة واحدة.. فبكيت.. وقلت له: تبعثنى فى حاجتك ثم تضربنى.

فانهمرت دموعه على خديه وانكسر.. ثم قال لى: اذهب إلى قبر رسول الله فصل ركعتين ثم قل: اللهم اغفر لعلى بن الحسين.. وبعدها أنت حر لوجه الله.

١٤

عن الجوارى .. فى الشرع الإسلامى

الإسلام يدعو إلى عتق الرق وإطلاق حرية المملوك



■ تحريم الاقتراب من أختين.. والأم وابنتها.. والعمة وابنة أخيها

■ إذا ولدت الجارية لسيدها تسمى «أم ولد» ولا يجوز أن يبيعها وتصبح حرة بعد موته

■ «من كانت له جارية، فعالها فأحسن إليها، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران» (حديث شريف)

انطوت صفحة الجوارى.

ولكن بقى السؤال حول الذى جرى وكان، فى ذلك الزمان البعيد.

● ماذا عن الجوارى فى الشرع الإسلامى؟

وقد طرح السؤال كثيرا، وجاءت إجابات الفقهاء تفصل فى هذا الأمر.

يذكر جبور عبد النور فى كتابه الجوارى أن الجارية فى الشرع الإسلامى هى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب، على شريطة أن تكون غير مسلمة، لأنه لا يجوز، لأى سبب من الأسباب، أن تسبى المسلمة وتسترق.

أو هى التى تلدها أمة مملوكة، ويكون أبوها عبدا، أوغير مالك لها، مسلمة كانت أم كتابية، أو هى التى تؤخذ شراء من أسواق الرقيق، فيبيعها فيها النخاسون، وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكتابيات الذميات اللواتى يعود أصلهن إلى ديار الإسلام، وإنما يأتون بالرقيق من البلدان الغريبة، ويتاجرون به. لأن الإسلام حرم السبى منذ قضائه على عادة الغزو المتأصلة فى نفوس البدو.

ولاشك أن الإسلام قد ارتقى بالمرأة ارتقاء بينا عندما حفظ لها حريتها بتحريمه اختطافها. فى حين أن الشرع الإسرائيلى يجيز

لليهـودى أن يستعـبد يهوديا آخـر لمدة معـينة لا تزيد على ست سنوات، إلا إذا ألح العبد على البقاء فى كنف مولاه، فله أن يحتفظ به.

وقد جاء فى التوراة، فى سفر الخروج ما نصه:

« إذا ابتعت عبـدا عبرانيا، فليخـدمك ست سنين، وفى السابعة يخرج حـرا مجـانا، وإن دخل وحده فليـخرج وحـده، وإن كان ذا زوج فليخرج زوجه معـه، وإن زوّجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات، فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه، وهو يخرج وحده، وإن قال العـبد قد أحبـبت مولاى وزوجى وبنى لا أخرج حرا، يقـدمه مولاه إلى الله أو إلى مصـراع الباب أو قائمتـه ويثقب مولاه أذنه، فيخدمه إلى الأبد. وإن باع رجل ابنته أمة، فلا تخرج خروج العبد، وإن كرهـهـا مولاها الذى خطبهـا لنفسه يدعـها تفك، وليس له أن يبيعها لقوم غرباء، لأنه قد غدر بها».

●●●

وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية والمشرعون قوانين تنظم حياة الجوارى وأحوالهن الشخـصية ، وكل ما يعود إليهن من رق وعتق وزواج وطلاق.

ومن هذه التشريعات :

● إن الجارية التى تولد للمسلم من أمته فتكون حرة إذا اعترف بها والدها، وفى مثل هذه الحـالة يجب على المولى أن يكتب صكا ليلحقها به، ويكون نصه كما يلى:

« أقر فـلان بأنه كان قـبل تاريخه وطىء مـملوكته التى بيده وملكه المـقـرة له بالرق والعـبودية، والمـدعـوة فلانـة، الفلانيـة الجنس، الوطء الصحيح الشرعى، واستولدها ولدا (ذكرا أو أنثى) يسمـى فلانا، الطفل يومـئذ ، وهو الآن فى قـيد الحيـاة، وأنه من

صلبه ونسله ، ونسبه لاحق بنسبه».

● فإذا ولدت الجارية لسيدها أصبحت تسمى «أم ولد» فلا يجوز بعدئذ أن يبيعها أو يهبها، وتصبح حرة بعد موت زوجها، فلا يرثها الوارثون، ولا يطالبها الدائنون.

والأولاد الذكور والإناث الذين يعترف بهم المولى المسلم يرثون والدهم أسوة بإخوتهم وأخواتهم الذين ولدوا من الحرائر. وكثيرا ما كان السيد يحرر أمته أم الولد، ويتزوجها زواجا شرعيا رفعا من شأنها وشأن أولاده منها، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر.. وإذا ما حررت الجارية تمهيدا لعقد النكاح الشرعى فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق، وعندئذ تخرج من عصمته ولا يحق له أن يعيدها إلى ملكه، بل تطلق حرة.

ومن القيود التى فرضها الشرع فى معاشرة الجوارى ما فرض على الزوج من تحريم الاقتراب من أختين، والأم وابنتها والعمة وابنة أخيها وغيرهن من ذوى الرحم المحرم، جريا على السنة المتبعة فى النكاح الرسمى، كما أنه حرم على رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معا، لأن الشرع يعاقب على مثل هذه الفعلة، ويعتبرها زنى صريحا.

● كان بعض الأحرار يتزوجون جوارى لسن ملك أبويهم، بعد أن يدفعوا لأسيادهن الصداق المترتب عليهم. وفى مثل هذه الحالات يحدد الشرع الشروط التى يجب أن تتم فى الحر الذى يود التزوج من أمة غيره. فيقضى ألا يكون متزوجا بحرة، وألا يكون لديه مال يكفى لصداق حرة، وأن يخشى عليه من التهور فى حياة المجون، بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر، وأحفظ لنفسه ودينه، ويكتب صكاً بهذ النص:

« هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان، المقرة لسيدها بالرق والعبودية، عندما خشى على نفسه العنت - الفجور والزنا - أو خاف الوقوع فى المحظور، لعدم الطول، وأنه ليس فى عصمته زوجة، ولا يقدر على صداق حرة على ما شهد له به من يعينه فى رسم شهادته، صداقا تزوجها به مبلغه كذا وكذا، وولى تزويجها إياه بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعيا».

ويذيل بالفقرة التالية التى تضاف على العقد:

«وشهدت البينة أن الزوج المذكور فقير وليس له موجود ظاهر، ولا مال باطن، ولا له قوة على نكاح حرة، ولا فى عصمته زوجة، وأنه عادم للطول».

●●●

وفى إجابة أكثر تفصيلا يقول الدكتور عبد الغنى عوض الراجى فى كتابه «الإسلام أنصف المرأة» الصادر ضمن سلسلة دراسات فى الإسلام عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية: كان الرق فاشيا فى العالم كله قبل الإسلام بصورة واسعة النطاق، وبأسباب لا تكاد تنضبط، ولا تدخل تحت حصر «المصريون والفرس والرومان، واليونان، والهنود، والصينيون والعرب».

ولم يكن للرقيق أية حقوق عند سادتهم.

وقد أمرت التوراة بالرق والإنجيل أيضا لأن المسيح مصدق للتوراة.

ولما ظهر الإسلام قصر الرق على حالة واحدة، هى التى تكون فى أعقاب الحرب، ووقوع أسرى الأعداء من الرجال والنساء فى أيدى المسلمين المجاهدين فى سبيل الله، المدافعين عن دينهم وحياتهم ووجودهم، ولهم أن يمنوا على الأسرى بالعفو، ولهم أن يقبلوا منهم الفداء، ويخلو سبيلهم، ولهم أن يضربوا الرق عليهم

يقول تعالى : ﴿فـإذا لقيتم الذين كفروا، فضـرب الرقاب حتى إذا أثخنتمـوهم، فشدوا الوثاق. فإمـا منا بعد، وإما فـداء، حتى تضع الحرب أوزارها﴾.

ولقـد أباح الإسـلام للمـالك: أن يعـاشـر التـى ملكهـا عن هذا الطريق، معاشرة الزوجات ويكون ذلك سبيـلا إلى عتقها وحريتها فى المسـتقبل، فـلا نجاسة فى الإسـلام، ولا استرقـاق للحر فى الإسلام ولا اعتداء على أحد بضرب الرق عليه ظلما وعدوانا.

هذا مع ترغـيب الإسلام فى عتق الرقـيق وإكرامـه، ومعـاملته بالحـسنى، واحتـرام آدميـته فى آيات كـثيـرة جدا من كـتاب الله. وأحاديث كثيرة جدا من كلام رسول الله.

نعم إنه من مبادىء الإسلام المشهورة أنه يدعو كثيرا إلى عتق الرقبة، وإطلاق حرية المملوك، ويجعل على ذلك ثوابا كبيراً. وعتق الرقاب أيضا يغـفر كثيرا من الذنوب والآثام كما فـى كفارة القتل، وكفارة اليمين، وكفارة الظهار.

قال تعـالى فى الحث على عتق الرقـاب ﴿ فلا اقتـحم العقـبة، وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعـام فى يوم ذى مسبغة، يتيما ذا مقـربة أو مسكينا ذا متـربة﴾ والمراد: تحـريض الإنسان على فعل ذلك العمل الجليل.

وقـال تعالى فى كـفارة الظهـار، الذى يحـرم الرجل فيـه على نفـسه امـرأته كحـرمـة أمه، ثم يريد أن يـرجع فى هذه التحـريم ﴿والذين يظاهرون من نسائهم، ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يـتماسـا، ذلكم توعظون به: والله بما تعـملون خبـير﴾ (سورة المجادلة).

ويقول فى كفارة اليمين ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمكانكم. ولكن يؤاخذكم بما عـقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشـرة مساكين

من أوسط ما تطعمون أهليكم، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة﴾ (سورة المائدة).

ويقول في كفارة القتل ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا، ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا﴾ (سورة النساء).

وقد كانت آخر كلمات الرسول الكريم وهو في فراش مرض موته، وصيته المشهورة في إكرام الرقيق التي رفع فيها يده وهو يقول «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم» ووصيته بالرقيق بجانب الصلاة التي هي أول أركان الرسلام يدل على أهمية الوصية وعظيم الثواب فيها.

فما أعظم حقوق الرقيق في الإسلام إذا قورنت بحقوق الرقيق في بلاد الاستعمار ونظامه. الذي كان يقوم على خطف الآدميين من المستعمرات، وشحنهم في البواخر كالحيوانات وتصديرهم إلى حيث يريد الاستعمار من قارة إلى قارة، بلا شفقة ولا رحمة، ولا أدنى احترام للآدمية.

وقد أوجب الإسلام الإحسان إلى المملوكين وجعله كالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى.

فقال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم. إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ (سورة النساء)

وفي صحيح البخاري كتاب مستقل سماه «في العتق وفضله» ذكر فيه كثيرا من الأحاديث التي تحبب في عتق الرقبة كمثل قوله ﷺ «أيما رجل أعتق امرأ مسلما استنفد الله بكل عضو منه، عضوا منه من النار».

وجاء فيه أن النبى ﷺ« يأمر عند كسوف الشمس بعتق الرقاب قربى إلى الله».

عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : «أمر النبى ﷺ بالعتاق فى كسوف الشمس.»

وجاء فيه قوله ﷺ « من كانت له جارية فعالها فأحسن إليها، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران».

وقوله ﷺ عن العبيد « إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم».

وقوله ﷺ « لا يقل أحدكم : عبدى وأمتى ، وليقل: فتاى، وفتاتى وغلامى».

ومدح رسول الله ﷺ العبد الأمين «والعبد راع على مال سيده، وهو مسئول عنه» وسب أبو ذر الغفارى عبدا مملوكا وعيره بأمه فقال الرسول ﷺ «أعيرته بأمه؟» وفى رواية قال الرسول «إنك امرؤ فيك جاهلية».

لقد بزغ فجر الإسلام والرق يسود العالم. ويتفشى فيه، وكانت له أسباب كثيرة جدا منها أن من يستدين، ولا يقدر على الرد يكون لصاحب المال الحق فى أن يأخذه عبدا مملوكا.

فما أحكم الإسلام حيث أقر الرق وجعل له سببا واحدا هو الأسر فى الحروب إذا أراد الغالب. مع جواز المن من الغالب أو أخذ الفدية، ثم فتح للعتق أبوابا كثيرة متعددة ومتنوعة.

والأسير الذى هو أصل الرقيق لم ينس القرآن أن يشير إلى إكرامه، فقال تعالى فى وصف الأبرار: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا، ويتيما، وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾.

الفهرس

رقم الإيداع ٩٨/٧٥٧٣
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 -0751 - 6